رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي

إنشاء

خلف الغافقي القبتوري

تقديم وتحقيق

الدكتور محمد الحبيب الهيله

1979 - 1399

المطبعة الملكية - الرباط



ثبت المصادر والمراجع

الانصاري السبتي (محمد بن القاسم)

ـ اختصار الأخبار ، عما كان بسبتة من سنيّ الآثار ، تحقيق الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور . ط . الرباط 1969 .

بروكلمان (كارل)

ـ تاريخ الادب العربي ، الطبعة الثانية ، بريل ـ ليدن 1937 ـ 1944 جزآن مع 3 مجلدات من الملحقات .

ابن بشكوال (خلف)

ـ الصلة : تحقيق عزة العطار . ط . القاهرة 1955 ـ جزآن .

البلاذري (أحمد)

ـ أنساب الاشراف ، تحقيق محمد حميد الله . ط . مصر 1959.

البلوي (خالد)

ـ الرحلة : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق .

1) مخطوط تونس رقم 14792 .

2) ط. المغرب : تحقيق الحسن السائح دون تاريخ .

ابن تاويت (محمد)

ـ سبتة الاسيرة : دراسة مستفيضة عن سبتة نشرت في مجلة البحث العلمي .

1) العدد 25 سنة 1976 ص 107 ـ 167 .

2) العدد 26 سنة 1976 ص 111 ـ 147 .

3) العدد 27 سنة 1977 ص 119 ـ 184 .

التجاني (محمد)

ـ الرحلة : تحقيق حسن حسني عبد الوهاب . ط . تونس 1958

التجيبي السبتي (القاسم بن يوسف)

ـ الرحلة : مستفاد الرحلة والاغتراب .

(الجزء الثاني) تحقيق عبد الحفيظ منصور .ط. تونس 1975

ـ البرنامج مخطوط الاسكوريال رقم 1756 .

التنبكتي (أحمد بابا)

ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج . ط . القاهرة 1329 هـ .

تيسران وفيات Tisserant et Wiet

ـ دراسة نص لرسالة ديوانية صدرت عن المرتضى الموحدي الى البابا اينوصان الرابع (باللغة الفرنسية) بحث بمجلة هسبيريس العدد 4 السنة 1926 .

ابن جابر الوادي آشي (محمد)

ـ البرنامج . مخطوط تونس رقم 21004 .
ـ مخطوط الاسكوريال 1726 .

الجوهري (اسماعيل)

ـ الصحاح : تاج اللّغة وصحاح العربية .
دار الطباعة ـ القاهرة 1281 هـ ، جزآن .

حازم القرطاجني

ـ منهاج البلغاء وسراج الادباء ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة . ط . تونس 1966 .

ابن حجر العسقلاني

ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة . ط . حيدر اباد 1348 ـ 1929/1350 ـ 1931 ، اربعة اجزاء .

ابن حزم (علي بن سعيد)

- جمهرة أنساب العرب ، ط . القاهرة ، 1948 .

الحلبي (محمود)

- حسن التوسل الى صناعة الترسل
  مخطوط باريس رقم 4436 .

ابن الخطيب (لسان الدين)

- الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان
  دار المعارف مصر . د ت
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، مخطوط المكتبة القومية
  بتونس رقم 2750 - 2751 .
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ط . القاهرة 1347 هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمان)

أ) التاريخ = العبر . ط . دار الكتاب اللبناني ، 1967 - 1968.
  سبعة مجلدات .
ب) ترجمة ديسلان

- ترجمة ديسلان Deslane .ط. باريس 1925 - 1956 4 أجزاء
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا . تحقيق
  محمد ابن تاويت الطنجي . ط . القاهرة 1370/1951

ابن الخوجة (محمد الحبيب)

- البيآت العلمية والفكرية بالبلاد العربية من رحلة ابن رشيد
  بحث نشر في مجلة المجمع العلمي بالقاهرة 1972 .
- أبو الفضل التجاني كما يصوره ابن رشيد في رحلته .
  بحث نشر في النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة
  وأصول الدين بتونس العدد 1 السنة 1971

ابن خير (أبو بكر محمد)

- الفهرسة . ط 2 . تحقيق كوديرا وريبيرا . القاهرة 1963 .

خيمينيز (فيليكس) Jèmenez

ـ بحث عن غافق الاندلسية ، في مجلة الاندلس العدد 9 السنة 1944 (بالاسبانية) .

دوفورك (شارل) Duffourcq

ـ اسبانيا القطلانية والمغرب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ميلادية (باللغة الفرنسية) ط . بارس ، 1966 .

الذهبي (شمس الدين)

ـ المشتبه في اسماء الرجال ، تحقيق ديجوكا ، ليدن 1880 .

ـ المعجم . مخطط الازهرية رقم 65 مصطلح .

ابن ابي الربيع (ابو الحسين عبيد الله)

ـ البرنامج : تحقيق عبد العزيز الاهواني . مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، المجلد الاول .

ابن رشيد (محمد بن عمر)

ـ الرّحلة = ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة ، مخطوط الاسكوريال بالأرقام 1726 ، 1739 ، 1730 ، 1737 ، 1735 .

الرعيني (ابو الحسن علي)

ـ البرنامج : تحقيق ابراهيم شبوح . ط . دمشق 1962 .

الزبيدي (محمد)

ـ تاج العروس من جواهر القاموس .
ط . القاهرة 1306هـ ـ 1307 : 10 مجلدات

ابن الزبير (أحمد)

ـ صلة الصلة : تحقيق ليفي بروفنسال . ط . الرباط 1938 .

ابن ابي زرع الفاسي (علي)

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية .
تحقيق الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور . ط . الرباط 1972.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس . ط ، حجرية ، د ت .

الزركلي (خير الدين)

- الاعلام . ط 2 . دمشق 1954 - 1959 . 10 أجزاء .

ابن سعيد (جماعة)

- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف . ط . دار المعارف بمصر 1953 - 1955 . جزآن .

السيوطي (جلال الدين)

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .
ط . القاهرة 1326/1908 .

الصفدي (خليل بن ايبك)

- الوافي بالوفيات : مخطوط تونس رقم 13326 .

ابن عذاري

- البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب . (الجزء الثالث) تحقيق اميروسي هويسي ميرانده ، بمشاركة محمد ابن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني
ط . تطوان 1963 .

ابن العماد (عبد الحق)

- شذرات الذهب في خبر من ذهب .
ط. القاهرة 1350/1931 - 8 أجزاء .

عياض (القاضي ابو الفضل)

- الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى
ط . مصر 1318 . مجلد واحد .

ابن فرحون (ابراهيم)

الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب .
طبع القاهرة 1329 هـ .

فنسنك وجماعته

— المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .
ط : بريل اليد 1933 — 1969 .

فنسنك وعبد الباقي

— مفتاح كنوز السنة . ط . القاهرة 1352/1934 .

ابن القاضي (احمد)

— درة الحجال في اسماء الرجال — مخطوط تونس رقم 8318 ،
و ط. الرباط 1936 ، جزآن .

— جذوة الاقتباس في من حل من الاعلام مدينة فاس .
فاس 1309 هـ .

القلقشندي (أحمد بن علي)

— صبح الاعشى في صناعة الانشاء — ط. دار الكتب المصرية
القاهرة ، 1338 — 1340/1919 — 1922 . 14 جزءا .

كحالة (عمر رضا)

— معجم المؤلفين . ط . الترقي ، دمشق 1957 — 1961 . 15
جزءاً .

ليفي بروفنسال

— دراسة الرسائل الديوانية الموحدية .
بحث في مجلة هسبيريس رقم 28 سنة 1941 .

— 37 رسالة ديوانية موحدية ، جمعها وحققها ليفي بروفنسال
ط. الرباط 1941 .

مايارهوف (ماكس)

– علم أمراض العيون عند محمد الغافقي . ط . برشلونة 1933
(بالفرنسية) .

المقري (أحمد)

– نفح الطيب . ط محمد محي الدين عبد الحميد
القاهرة 1949 – 10 أجزاء .
– ازهار الرياض . ط . بيت المغرب . القاهـرة 1939 – 1943
(ثلاثة أجزاء فقط) .

الناصري (احمد)

– الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى .
ط. دار الكتاب – الدار البيضاء 1954 – 1955 . 5 أجزاء .

النويري (احمد)

– نهاية الارب في فنون الادب . ط . دار الكتب – 18 جزءاً .

الهيله (محمد الحبيب)

– بعض الرسائل الديوانية من سبتة العزفية .
دراسة قدمت الى الملتقى الثاني للمؤرخين التونسيين
والاسبان بمدريد 1973 . جمعت في كتاب صدر بمدريد
سنة 1974 .

ونسنك : انظر فنسنك .

ياقوت الحموي

– معجم البلدان . ط . دار صادر ، بيروت 1957 . 20 جزءا .

موقع سبتة واهميته

عرفت سبتة عند المؤرخين المسلمين بأنها « مفتاح الأندلس » وهي تسمية صائبة في عصر كانت فيه بلاد المغرب الاسلامي على درجة من القوة والمكانة تجعل القوة الاسلامية هي الفاتحة المنتصرة . فقد كانت فعلا مفتـاح الأندلس ومنها كان منطلق الفتـح الاسلامي الأول كما كان منهـا منطلـق الفتوحات المغربية في العدوة الأندلسية . اما في العهد الذي اشتدت فيه وطأة حروب الاسترداد وطالت ايـدي الاسبان حـاولت الاستراتيجية النصرانية ان تجعلها « مفتاح المغرب » لذلك كان منها تركيز الكثير من الهجومات الاسبانية وغيرها على سبتة لتكون بحصنها المنيع منطلقها لما كانت تنويه من التوسـع في البلاد المغربية .

فقد كانت سبتة مركزاً حربياً من الدرجة الأولى في الـدول المغربية الكبرى الثلاث .

ـ اذ جعلها يوسف بن تاشفين مركزاً لانشاء الأساطيل .

ـ وامر عبد المؤمن بن علي في سنة 551 هـ بأن تكون سبتة من اهـم مراكز الأساطيل الجهادية ، وجعل كل خليفة موحدي يجوز الى الأندلس يمرّ منها ، من عبد المومن بن علي سنة 555هـ الى ابي يعقوب الموحدي سنة 558هـ الى غيرهما .

ـ وكانت كل جوازات المرينيين وخاصة ابي يوسف المريني تحتاج الى سبتة في حركاتها .

وبالاضافة الى النهضة الحضارية والعلمية التي شهدتها سبتة فقد لعبت مكانتها الاستراتيجية واهميتها التجارية دوراً هاماً ـ على مر العصور ـ فجعلت المدينة مركزاً مقصوداً من الناس ممن ينتمون الى مختلـف الطبقات والأصناف .

فهي بموقعها الجغرافي المتوسط بين العدوتين تعتبر احسن الطرق واقربها للمتنقل بين الأندلس والمغرب ذهابا وايابا خصوصا منذ بدأت في القرن السابع وفود الأندلسيين تغادر الجزيرة الايبيرية بل ومنذ سقوط بعض الحصون والثغور الاسلامية الأولى في شمالها خلال القرن السادس الهجري .

اما في القرن السابع فقد تكاثر عدد المدن التي استولى عليها النصارى وسقطت قرطبة 636هـ ثم اشبيلية سنة 646هـ وما كان بينهما من المدن ، وتقرب ابن الأحمر بالعديد من الحصون الى الملوك الاسبان فاسلمها اليهم دون مقاومة ولا دفاع ، وكان الكثير من اهل الأندلس لا يرضون بالمقام في المدن الأندلسية الباقية في حوزة ابن الأحمر فغادروا مدنهم وجناتهم المفقودة متجاوزين المضيق ليقصدوا بلاداً اسلامية اخرى بعدت اراضيها ونأت حوزتها عن ايدي النصارى .

وكانت وجهات النزوح تختلف باختلاف الانواع الاجتماعية للنازحين ، فان اهل العلم والمعرفة من المثقفين يقصدون دائماً المراكز الثقافية في ذلك الزمن ومن اهمها فاس ومراكش وسبتة وبجاية وتونس ومنها الى المشرق او للرحلة العلمية . وهكذا تكون سبتة بما لها من اهمية ثقافية هي اولى المراكز العلمية التي تواجه النازحين فتكون اولى المراحل قربا ومن اكثرها اقتراباً من الأرض الأندلسية وطبيعتها وخصائصها العمرانية والاجتماعية وهو ما يفسر لنا ارتفاع نسبة النازحين اليها حتى قيل ان عدد النازحين عن اشبيلية 400 الف نسمة قصد سبتة منهم 100 الف ، منهم من اتخذها كمرحلة اولى ومنهم من اقام بها بصفة نهائية الى ان وقع الاستيلاء عليها في القرن التاسع .

سبتة الموحدية قبل ابن العزفي :

منذ بداية العهد الموحدي وخضوع سبتة لعبد المؤمن بن علي سنة 1146/540 توالى عليها من طرفهم ولاة من امراء البيت الموحدي ، وعند ما اصيبت الدولة الموحدية بما شتّت وحدتها من انقسام وتناحر بين افراد العائلة

المالكة حاول بعض الأمراء الولاة على سبتة الاستقلال بها بداية من سنة 627/ 1230 عند ما خالف علي المأمون اخوه ابو موسى والي سبتة ودعا لنفسه فيها وبايعه اهلها وتلقب بالمؤيد فكان ذلك سبباً في سيطرة ابن هود عليها ولم يدم عهده طويلا حتى انتفض اهلها عليه وبايعوا رجلا من اعيان تجارها هو الحاج ابو العباس احمد اليانشي (1) الذي تلقب ايضاً بلقب الموفق بالله وكان ذلك سنة 1233/630 وفي عهده (سنة 1236/633) وقع حصار المدينة من طرف الجِنْويين واصابها منهم بلاء عظيم (2) .

وفي سنة 1238/635 ولى الرشيد الموحدي على سبتة أبا علي بن خلاص (3) الأندلسي الذي خالف على الموحدين بعد موت الرشيد سنة 640/ 1243 وبايع ابا زكريا الحفصي بتونس فوجه الى المدينة واليا عليها من قبله ، هو ابن الشهيد الهنتاتي ومعه معينه ابن ابي خالد البلنسي (4) الذي كثر جوره على اهل سبتة وساءت بها سياسته فخاف الشيخ ابو القاسم العزفي وامير بحرها ابو العباس الرنداحي ان يكون مصير مدينتهم كمصير اشبيلية التي سقطت بأيدي النصارى بسبب سوء تصرف واليها ابن الجد ومُمالأته للنصارى ثم موته على ايدي العامة ، فقام ابو القاسم العزفي بثورة بيضاء اطاح فيها برؤوس الفتنة – وهم قلة – دون ان تقوم حرب داخلية (5) بل عمت الفرحة بين اهل المدينة لما عهدوه في ابن العزفي من حسن السلوك والمكانة الاجتماعية والعلمية البارزة .

بنو العزفي بسبتة :

عرفت سبتة منذ العهد المرابطي نهضة حضارية هامة وحركة علمية مزدهرة فأصبح فيها للمجموعات المثقفة مركز التأثير الاجتماعي والسياسي

---

1) ابن عذاري : البيان المغرب 3 : 276 .
2) نفس المصدر 3 : 346 – 347 .
3) نفس المصدر 3 : 343 .
4) نفس المصدر 3 : 381 ، والذخيرة السنية 61 .
5) الذخيرة السنية 76 .

وكان لها الأثر البعيد في اتجاهات المدينة السياسية ومواقفها من الـدولتين المرابطية الموحدية (6) واصبح خلفاء الموحدين يدارون هـذه الطبقـة ويستألفونها بالاستشارة في الشؤون السياسية سواء الخاصة بسبتة او التي تتعداها الى غيرها مما يهم الأندلس والمغرب ، فظهرت في سبتة بيوتات جمعت بين شرفي العلم والمجد كبيت عياض وبيت الشرفاء الصقليين وبيت بني العزفي وبيت بني عبد المهيمن الحضرميين (7) فكان لهذه البيوتات الأثر والتوجيه في كل حدث سياسي وهو ما يفسر قيام الثورات الشعبية ضد كل متولٍ للمدينـة يسيء السيرة ويحدث جَورا وظلما .

وعند ما شعر اهل سبتة بخطر النصرانية يداهم ابواب مدينتهـم – خاصة بعد سقوط اشبيلية – حزموا امرهم وولوا عليهم الشيخ الفقيه ابـا القاسم العزفي الذي كان ابنا لعالمها ومحدِّثـها ابي العباس العزفي وحفيداً لقاضيها وفقيهِها ابي عبد الله محمد العزفي. وعائلة بني العزفي تُنسب الى جد لها يعرف بابن ابي عزفة – من بني لخم – ومن سلالة النعمان بن المنذر (8) ، واصهر اليها بنو خلدون عند اقامتهم بسبتة (9) والشرفاء الصقليون (10) وبنو عبد المهيمن الحضرميون (11) .

وقد كان أبو القاسم محمد بن احمد بن محمد العزفي معدوداً من خيرة علماء سبتة اخذ عن كبار شيوخها ودرس زمناً بمسجدها واكمل كتاب والده « **الدر المنظم في مولد النبي المعظم** » فقام بأمر المدينة احسن قيـام والتف

---

6) انظر مثلا المراسلات المتعددة بين عبد المومن بن علي وبين الطلبة والاشياخ بمدينة سبتة ، ابن عذارى : البيان المغرب 3 : 20 وغيرها ، 37 رسالة موحديـة ص 1 ، 55 ، 61 ، 67 ، 218 .

7) ابن خلدون : التعريف 38

8) المقري : ازهار الرياض 2 : 374 .

9) ابن خلدون : التعريف 11

10) نفس المصدر 80 – 81

11) محمد ابن تاويت : مجلة البحث العلمي ، العدد 26 ص 129 .

العامة حوله « وبقي بها مسروراً ، معظماً ميسوراً ، ولم يزل اهل بلده يعظمونه بغاية الاعظام ، والتوقير لجانبه والاحترام ، فهو من جلة الفقهاء الاعـــلام ، ومن مآثره العظام ، قيامه بمولد النبي عليه السلام » (12) .

حزم ابو القاسم العزفي امر المدينة واحسن التصرف في سياستها في هذه الفترة التي تقاسمت المغرب فيها قوتا الموحدين والمرينيين وتقاسمت الأنـــدلس دويلات اسلامية متخاذلة كدولة النصريين او ضعيفة كامارة بني اشقيلولة ، ولم يبق في حوزتهم غير بقايا ضئيلة من جنوب جزيرة الأنـــدلس لا تستطيع بحال ان تواجه قوى الزحف النصراني .

ولما كان الموحدون ـ في بداية العهد العزفي ـ اعظم قوة مغربية ، انضوى ابو القاسم العزفي تحت رايتهم وبعث ببيعته اليهم ، وبقي على ذلـك الى ان ضعفت دولة المرتضى الموحدي ولم يجد منها ما كان يتوقعه مـــن الحماية والقوة فأعلن استقلاله سنة 654/1256 (13) دون ان يقطـــع علاقته بالمرتضى الموحدي وبقيت رسائله اليه متواصلة .

وفي الفترة التي كانت فيها سبتة مستقلة تطلعت اليهـا اطماع ابـن الأحمر فوجه اليها سفنه لغزوها فهزمه ابن العزفي ورده على اعقابه وذلك في سنة 659/1261 فسميت السنة بعام ظافر .

وعند ما قوي امر المرينيين وتفردوا بحكم المغرب تطلع ابو يوسف يعقوب المريني الى الجواز للأندلس لمواجهة حروب الاسترداد فحـاول اولا امتلاك سبتة وطنجة سنة 666/1268 فلم يمكنه ذلك وعاد ادراجه ، ثم عاودهما خلال سنة 672/1273 فاستولى على طنجة ثم اتجه الى سبتة فاذعنت له بـعـد محاصرة .

ومنذ ذلك التاريخ دخل ابن العزفي تحت طاعة المرينيين وبقيـــت سبتة على ولائها لهم تبذل كل ما وسِعَها من الجهد في كل جواز مـــريني الى

---

12) ابن عذاري : البيا نالمغرب 3 : 401 .

13) ابن عذاري : البيان المغرب 3 : 414 .

الأندلس فتعد السفن الجهادية وتنقل المجاهدين الى العدوة الاندلسية وتزود الجيش بالمهرة من الرماة والمحاصرين ، واصبح ابو القاسم العزفي علـــي اقوى الصلات بأبي يوسف يعقوب فيكتب الى بعض الملوك بلسانــــه ويوجه رسائل الفتح الى مختلف المدن والآفاق المغربية ليعلمهــم بالانتصـــارات المرينية .

وكانت لأبي القاسم العزفي بجانب ذلك انجازات معمارية كثيرة من بينها السور المجانب للمنارة ، واعظم فنادق المدينة المستعمل لاختزان الزرع ، والجب الذي باسفل الميناء ، وصومعة مسجد مقبرة زكلو (14) .

مات ابو القاسم العزفي سنة 1278/677 بعد ان امتدت دولته قرابـة الثلاثين سنة فتولاها بعده ابنه ابو حاتم الذي لم يدم تصرفه فيها اكثر من سنة واحدة استبد عليه بعدها اخوه ابو طالب فكان يسيّر كل شؤون المدينة مبقياً لأخيه ابي حاتم شرف الامارة وصدور المراسلات الرسمية باسمه ، وظـــل الحكم الفعلي في يد ابي طالب الى سنة 1305/705 حيث دخلت سبتة في فترة عصيبة وقعت فيها اولا تحت سلطة ابن الاحمر الذي عمل على اضعافها وتوهين قواها ثم غرقت في مرحلة من الاضطرابات والضعف مما سهـــل احتـــلال البرتغال لها سنة 1415/818 وانتقلت منه الى الاحتلال الاسباني الذي ما زال مخيماً عليها الى اليوم .

فهذه الرسائل ـ التي نقدمها محققة في هذا الكتاب ـ صدرت عــن ديوان انشاء سبتة في فترة كانت فيها المدينة تمر بأينع فتراتها واكثرهـــــا ازدهاراً ، اي في عهد امارة اول العزفيين واعظمهم شأناً ابي القاسم محمد بن احمد العزفي الذي كان من العلماء المشهورين والساسة الماهرين .

وكان من اصول العصر وقواعده السياسية ان يحسن الأمير اختيار كاتب ديوان انشائه وينتقيه من بين خيرة المثقفين الأدباء واهل الفطنة والذكاء إذ للرسائل الديوانية الدور الخطير في توجيه السياسة .

---

14) الذخيرة السنية ص 80 ، 82 الانصاري : اختصار الاخبار ص 41 ، 43 .

فكان الكاتب الذي وقع عليه اختيار الأمير العالم ابي القاسم العزفي هو ابو القاسم خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري الذي نحاول التعريف به والترجمة له ، ثم نقدم رسائله التي كتبها عن الامارة العزفية ليجد فيها الباحثون من مؤرخين ودارسي ادب مجالا للنظر ومادة للبحث والاستقراء .

ترجمة الغافقي القبتوري

المصادر : إنّ ما تسنّى لنا جمعُه من المصادر المعتَمدة في ترجمة الكاتب خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري يمكن ان ينوع إلى نوعين :

أ) مصادر عاصرت المؤلف فكتبت خلال حياته او بعد وفاته بقليل من طرف مؤلفين عاصروه وكان بعضهم ممن تتلمذ له ، ومن هذا النوع كتب اوردت ترجمات للقبتوري ، ومنه كتب اوردت عنه معلومات لها علاقة وطيدة بحياته وثقافته وتنقلاته وغير ذلك .

ب) مصادر أُلِّفَتْ بعد عصر القبتوري واوردت ترجمات له ناقلة عن النوع الأول او مستفيدة من كتب اخرى ضاعت ولم نعثر عليها .

فمِن النوع الأول امكننا ان نستفيد من اربعة مؤلفين عاصروا القبتوري ومنهم من اتصل به او تتلمذ له او رافقه في بعض رحلاته ومنهم من بعدت به الدار او صغر سنه فلم يتصل به بل بلغته اختباره فرواها في كتبه .

والواضح ان اخبارهم جميعا على درجة من الأهمية تجعلنا نعتبر كتبهم مصادر من الدرجة الأولى ، وهم :

1) ابن رشيد الرحالة المحدث الاديب ولد بسبتة سنة 657/1259 وتوفي بفاس سنة 721/1321 اشهر مؤلفاته رحلته التي جمع فيها من المسائل العلمية ومن اخبار العلماء في كثير من البلاد الاسلامية ما جعل اهل المعرفة يعتبرونها من اهم المعلْمات للتاريخ الحضاري الاسلامي في القرن السابع الهجري وعنوان الرحلة : **ملء العيبة بما جُمِعَ بطول الغَيْبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة .**

وقد عثرنا في بعض اجزائها على معلومات تتعلق بالقبتوري (15) .

ففي المخطوط رقم 1736 من هذه الرحلة (وهو يمثل الجزء الثاني) وجدنا المعلومات التالية :

أ) **الورقة 16 ــ أ الى 16 ــ ب** : وصف ابن رشيد كاتبنا القبتوري بأنه « بقية الكتاب ، وصدر أهل الآداب » واورد ثلاثة ابيات رواها له القبتوري ونسبها إلى قيبة التركي .

ب) **الورقة 23 ــ ب** : أورد ابن رشيد اربعة ابيات تنسب لخميس الحَوْزي باسنادها واشار إلى انه رواها ايضا عن القبتوري قائلا عنه : «شيخ الكتاب وخاتمة اهل الآداب شيخنا او القاسم القبتوري » ملاحظا بعض الاختلاف في الروايتين .

وفي المخطوط رقم 1735 (وهو يمثل الجزء الرابع) وجدنا المعلومات التالية :

ج) **الورقة 45 ــ ب ــ 46 ــ أ** : إجازة كتبها القبتوري لأبي الفضل التجاني ، ويذكر ابن رشيد ان للقبتوري في صناعة الانشاء « القَدَم والقِدم والتَّقدُّم والرسوخ » كما يصف خطه بانه « بارع برز فيه من طائفة الكتاب على العِلية » :

د) **الورقة 46 أــ 47 ــ أ** : إجازة ثانية كتبها القبتوري لأبي الفضل التجاني ايضا من الشعر (16) .

2) **القاسم بن يوسف التجيبي السبتي عالم محدث رحالة مات سنة 730/ 1329** له رحلة هامة عنوانها : **مستفاد الرحلة والاغتراب** كتبها في ثلاثة اجزاء

---

15) يقوم على تحقيق هذه الرحلة الهامة الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة وقد عرف بمخطوطاتها في دراسة له عنوانها : البيآت العلمية والفكرية بالبلاد العربية من رحلة ابن رشيد ، ونشرت هذه الدراسة في مجلة الجمع العلمي بالقاهرة سنة 1972 .

16) نشر القسم الخاص بترجمة ابي الفضل التجاني بتحقيق الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة في النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين بتونس ، العدد الاول ، سنة 1971 ص 257 – 294 .

لم يعثر منها إلا على الجزء الثاني في خزانة مخطوطات المكتبة الصادقيـــة بجامع الزيتونة بتونس (17) وله **برنامج** هام (18) .

اهمية هذه الرحلة تبدو من حيث ان المؤلف تتلمذ على القبتـــوري وصحبه في رحلته الى المشرق ، وعلى الرغم من انها لا تقدم لنا ترجمـــــة للقبتوري فانها غنية بالمعلومات الخاصة بحياته وتحوي خمـــس مقطوعات وقصائد شعرية للقبتوري لم تذكرها المصادر الأخرى :

أ) **مستفاد الرحلة ص 35 ـ 36** : يذكر التجيبي اجتماعه بقاض قضاة مصر ابن دقيق العيد بمحضر القبتوري ، وقد انشد التجيبي مقطوعتين لابـــن دقيق العيد كان خمّسهما القبتوري فقرأ على الجمع التخميسين ونقلهمـــا في رحلته .

ب) **مستفاد الرحلة ص 127** : يشير التجيبي الى انه ذكر في الجـــزء الاول من الرحلة « اناشيد للفقيه الامام ابي القاسم القبتوري » .

ج) **مستفاد الرحلة ص 197** : يذكر التجيبي انه غادر قرية العباسيـة بمصر ويقول « وكان عديلي في الركوب الشيخ الامام الصالح الفاضل ابـــو القاسم القبتوري المذكور في غير موضع من هذا التقييد ، اعاد الله تعالى علي من بركاته ، ونفعنا بصالح دعواته ، واطال حياته الخير بطول حياته ، وجزاه عنا خير الجزاء ، بمنه وكرمه » .

د) **مستفاد الرحلة ص 204** : يقول التجيبي « ونزلنا شهاب ، وليـس به ماء ، وماتت لنا خادم رفيقنا ابي القاسم وهي الحاجة مسعودة ــ رحمهـا الله تعالى ــ وكانت مصلية امينة ، فدفناها به وفقدنا مكانها » وذلك في شهر شعبان سنة 696/ماي ــ جوان 1297 .

---

17) تحت عدد 10503 ، وهي الآن بدار الكتب القومية بتونس تحت عدد 6451 ط ــ تونس سنة 1975 .

18) النسخة الفريدة منه في مكتبة الاسكوريال تحت رقم 1756 .

هـ) **مستفاد الرحلة ص 214** : نزل الركب بمكان يسمى المربوطـــة بالشاطيء الغربي من الجزيرة العربية بعد ان اجتازوا البحر الاحمر واصابهم من اهوال البحر وعواصفه رعب وفزع فتقدمهم الشيخ ابو القاسـم القبتوري وصلى بهم ثم دعا لهم دعاء حسنا وامن الناس وذرفت العيون .

و) **مستفاد الرحلة ص 228** : اورد التجيبي قصيدا من شعر القبتوري عدد ابياته 15 نظمها في مدح الكعبة والحنين لها .

ز) **مستفاد الرحلة ص 451** : خلال اقامتهما باجياد بمكة يـــوم 8 ذي القعدة سنة 696/28 اوت 1297 روى التجيبي لشيخه القبتوري اربعة ابيـــات فخمسها وانشده تخميسها ، وقد وصف التجيبي شيخه بما نصه : « شيخنـا وسيدنا وعُمدتنا وذخيرتنا وبركتنـــا ورفيقنـــا إمام الكتـــاب . . . . . . ابي القاسم خلف بن الشيخ .. .. .. الحافظ ابي الاصبغ عبد العزيز بن محمـد الغافقي الاشبيلي مسكناً القبتوري جار رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزيل طـابـة على ساكنها السلام » .

ح) **مستفاد الرحلة ص 452** : يروي التجيبي انه لما كانت القافلة في طريقها الى الحجاز سمع القبتوري ابياتا فاستحسنها وخمّسها فضاع لـــــه التخميس وبقي على حفظه تخميس البيت الأخير ، وعند ما كانا بمكة طلـــب التجيبي منه كمال هذا التخميس فأنجزه وانشده إياه يوم 9 ذي القعدة سنـــة 696/29 اوت 1297 .

اما برنامج التجيبي فمنه نسخة بمكتبة الاسكوريال لم اتمكن مـــن الاطلاع عليها ونسخة مصورة منه على ملك الاستاذ محمد ابراهيم الكتانـــي اطلعني عليها ولم تسعفني الظروف بقراءتها والاستفادة منها وكانت نظرتـــي العابرة فيها عند تصفحها دلتني على ان التجيبي ذكر فيها شيخه القبتـــوري مـــــراراً .

3) ابن جابر الوادي آشي ، عالم محدث فقيه عارف بأخبار اهل العلم ولد بتونس سنة 673/1274 وتوفي بها سنة 749/1348 (19) ، له **برنامج** (20) هام ذكر فيه شيوخه من مغاربة ومشارقة وجمع فيه الكتب والمرويات التي رواها عنهم ، خص فيه القبتوري بترجمة موجزة لعلها تعتبر الاصل الذي نقلت عنه كثير من المصادر المشرقية .

4) شمس الدين الذهبي العالم المؤرخ المحدث صاحب الطبقات والتراجم ، مشرقي ولد سنة 673/1274 وتوفي سنة 748/1348 ، كتب ترجمة قصيرة للقبتوري في كتابه **المشتبه في اسماء الرجال** (21) ، ولم نجد ما يثبت ان الذهبي اتصل بمؤلفنا ، الا ان معرفته بضبط اسمه يدلنا على الشهرة التي كانت للقبتوري في عصره في البلاد المشرقية ، ويبدو ان الذهبي ترجم القبتوري ترجمة هامة لم نجدها في مظانها من تآليف الذهبي **كالمعجم** وقد نقلت عنها بعض مصادر الدرجة الثانية .

ومن النوع الثاني امكننا ان نستفيد من عشرة مصادر كتبت في العصور الموالية لعهد المؤلف بعضها قدم لنا ترجمة له والبعض الآخر زودنا بمعلومات توضح لنا بعض الجوانب من شخصيته ونشاطه العلمي وهي :

1) خليل بن ايبك الصفدي : الكاتب المؤرخ الشهير توفي سنة 764/1363 خص القبتوري بترجمة هامة في كتابه **الوافي بالوفيات** (22) الذي هو اشهر آثاره واعظمها ، وهي ترجمة موفية بالغرض حيث تحتوي على دقائق لها اهميتها من ضبط للقب القبتوري وتاريخ الولادة والوفاة وايراد لقائمة (23) اساتذته مع مقطوعات شعرية له رواها اثير الدين ابن حيان الغرناطي ومقطوعتين رواهما له فتح الدين بن سيد الناس ثم يختم الصفدي هذه الترجمة بنقد ادبي لشعر القبتوري .

---

19) ترجمة ابن فرحون : الديباج 312 ، السيوطي : بغية الوعاة 515 .

20) منه نسختان اولاهما بدار الكتب القومية بتونس رقم 21004 والثانية بالاسكوريال رقم 1726 .

21) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 – أ – و – ب .

22) الذهبي : المشتبه ص 417 .

23) الصفدي : الوافي بالوفيات (مخطوط تونس رقم 13326) ورقة 38 أ .

2) خالد البلوي المتوفى سنة 1364/765 ، عالم من قضاة الاندلس قام برحلة الى المشرق وتونس دامت قرابة الخمس سنوات وسجلها في كتاب سماه **تاج المفرق في تحلية علماء الشرق** (24) عرثنا في هذه الرحلة علـــى بيتين رواهما له ابو العباس بن خلف الغافقي القبتوري وبذلك علمنا بـــان للقبتوري ابنا على درجة من الثقافة .

3) لسان الدين بن الخطيب ، الاديب الاندلسي والمؤرخ السياسـي الشهير توفي سنة 1374/776 ، أورد في كتابه **الاحاطة في اخبار غرناطة** (25) . خبراً عن مرثية كتبها عبد العزيز القبتوري والد المؤلف في احد اساتذته وهو ابن الرومية .

4) ابراهيم بن فرحون المتوفى سنة 1397/799 فقيه مؤرخ صاحـــب كتبا **الديباج المذهب في اعيان المذهب** اورد اسم القبتوري في قائمة شيوخ ابن جابر الوادي آشي (26) .

5) عبد الرحمان بن خلدون المؤرخ الشهير توفي 1406/808 ، ذكـر القبتوري في **تاريخه الكبير** وقد نعته بالاستاذ (27) ، كما ذكره ثانية في رحلته المنشورة بعنوان **كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا** (28) .

6) ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 1449/852 ، اورد له في كتابه **الدرر الكامنة** ترجمة (29) .

---

24) البلوي : تاج المفرق : (مخطوط تونس) ورقة 162 ب .

25) ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ج 1 : 221 .

26) ابن فرحون : الديباج المذهب 312 .

27) تاريخ ابن خلدون 7 : 516 .

28) التعريف بابن خلدون : 309 .

29) ابن حجر : الدرر الكامنة 2 : 85 .

7) جلال الدين السيوطي المتوفى 1505/911 ترجمه في كتابه **بغيــــة الوعاة** وذكره في ترجمة ابن جابر الوادي آشي (30) .

8) ابن القاضي المتوفى سنة 1616/1025 ترجم للقبتوري في كتابــه **درة الحجال في اسماء الرجال** (31) .

9) احمد بابا التنبكتي المتوفى سنة 1627/1036 ذكر القبتـــوري في ترجمة التجيبي الرحالة التي اوردها في كتابه **نيل الابتهاج** (32) .

10) احمد المقري المتوفى 1631/1041 ترجم للقبتوري في كتابه **نفح الطيب** وذكره ايضا في باب فضائل اهل الأندلس من نفس التأليف (33) .

تحليل المصادر ونقدها : تمثل المجموعة الاولى من المصادر الامهات التي تعتمد لتوثيق المعلومات حول شخصية القبتوري نظراً لثبوت معلوماتها وبالغ اهميتها ونظراً لكونها كتبت من طرف اناس عاصروه وعايشوه وجمعتهم به صلة الانتساب الى مدينة سبتة وصلة التعلم والأخذ عنه والمرافقة له فــي رحلته الى المشرق .

أما المجموعة الثانية فهي لا تمدنا الا بمعلومات نقلت عن المؤلفين السابقين وقيمتها تتمثل فيما نجده فيها من معلومات نُقلت عن المصـــــادر ألأساسية الضائعة التي لم تصلنا .

فتحليل هذه المعلومات لا يسمح لنا ان نقدم ترجمة موفية بكــــل تفاصيل حياة القبتوري وما ذلك الا لأن كل هذه المصادر تورد اخباراً متشابهة لانها تنقل عن بعضها .

---

30) السيوطي : بغية الوعاة 242 ، 515 .

31) ابن القاضي : درة الحجال رقم 393 .

32) احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ص 222 .

33) المقري : نفح الطيب 3 : 352 ، 5 : 13 .

واذا تتبعنا المصادر التي نقل عنها مؤلفوا النوع الثاني وجدنا ان المترجمين منهم للقبتوري يتمايزون في اختيار مصادرهم ، فابن حجر ينقل عن الذهبي والصفدي ، والسيوطي ينقل عنهما بواسطة ابن حجر ، والمقري ينقل عنهما دون ذكر مصادره ، وابن القاضي ينقل عن ابن جابر الـوادي آشـي ، وهكذا تكون حصيلة حصادنا قليلة وغير كافية ولولا ما وجدناه في رحـلتي التجيبي وابن رشيد السبتيَّيْن من اخبار عن إنتاجه العلمي والأدبي وعن رحلته ومراحلها وتاريخها لظلت شخصية القبتوري مغمورة ومعالمها اكثر غموضاً .

ويجدر بنا بعد ذلك ان نلاحظ ما يلي :

ان تحليل نصوص المصادر يشجعنا على ان نتساءل ونأمـل في امكانية العثور على معلومات جديدة تخص القبتوري في مجموعة هامة مـن المصادر ما زالت في غمرة الضياع سواء منها التي ذكـرت في المصادر السابقة او التي لم تذكر فيها .

فمن النوع الأول كتاب لشمس الدين الذهبي ترجم فيـه للقبتوري بترجمة كاملة وهي التي نقل عنها ابن حجر دون ان يذكر عنوان الكتاب ، ولقد بحثنا في الكتب المنسوبة للذهبي المخطوط منها والمطبوع فلم نعثر علـى ترجمة للقبتوري غير ما ورد في كتاب **المشتبه في أسماء الرجال** (34) .

ومن النوع الثاني يمكن ان نعتبر كتاب **برنامج** عبد المهيمن الحضرمي الذي قيل عنه انه ترجم فيه لأكثر من الف شيخ من شيوخه واكثرهم من اهـل المغرب والاندلس حتى قيل عنه : إنه ضاع بضياعه علم كثير (35) .

---

34) تعذر علينا ان نطلع على الجزء الاخير من تاريخ الاسلام الكبير .

35) ابن القاضي : جذوة الاقتباس 279 .

الـتـرجـمـة

اسمه ونسبه : هو ابو القاسم خلف بن ابي الاصبغ عبد العزيز بن محمد بن خلف بن عبد العزيز بن محمد الغافقي الاشبيلي القبتوري .

فلعل نسب « الغافقي » يشير الى ان الأسرة كانت اصيلة اليمن حيث تستقر قبيلة غافق (36) والتي قدمت منها بعض الجماعات الى افريقية والأندلس في عهد الفتح الأول خاصة في عهد الفتح الأول خاصة في الغزوة التي قام بها عبد الرحمان الغافقي البطل الشهير الذي بلغ إلى Poitier بفرنسا . ويمكن ان تكون جماعة الغافقيين هم الذين بنَوْا مدينة غافق (37) الأندلسية وان عائلة المؤلف نسبت الى هذه المدينة لكونها سكنتها ، والملاحظ ان العديد من الاندلسيين عرفوا باسم الغافقي ويكفي ان نلقي نظرة على فهارس كتب التراجم الاندلسية لنعرف مدى انتشار هذا الاسم بينهم (38) .

---

36) اسم الجد الاعلى كما يثبت بعض النسابين هو غافق بن شاهد (أوشاهك) بن عدنان بن عبد الله بن الازد ، ويسميه آخرون غافق بن عك بن حارث بن عدنان بن عبد الله القحطاني ، انظر الزبيدي : تاج العروس ، مادة (غفق) الجوهري : الصحاح ، نفس المادة ، النويري : نهاية الارب 3 : 312 ، ابن حزم جمهرة الانساب ص 309 . البلاذري : انساب الاشراف 14 ، 15 .

37) مدينة اندلسية تعتبر من اهم مدن فحص البلوط ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان مادة (غفق) ومادة (فحص) تقع في شمال قرطبة على مسافة 100 كلم وهي الآن تعرف باسم Campo de Calatrava يذكر Felix Hernandez ان النصارى استولوا عليها حوالي 1168م وعرفت في القرن السادس عشر الميلادي باسم Belalcaza انظر مجلة الاندلس العدد 9 السنة 1944 .

اما Asin Palacio فيرى انها مدينة Giugo في منطقة Pédroche والقريبة من قرطبة انظر l'ophtalmologie de Mohammad Al-Ghafiqi - Max Meyer ص 225

وتجدر الملاحظة هنا ان بطرابلس الغرب حصنا يحمل اسم عافق ، انظر التجاني: الرحلة ص 309 .

38) انظر مثلا كتاب الصلة لابن بشكوال (الفهارس) .

اما نسبته الى اشبيلية فهي بحكم اقامة عائلته نظراً لما عــــرفناه من ولادته بها واقامة ابيه بها كذلك .

وتبقى نسبته الى قبتورة غامضة نظراً الى اننا لم نجد ما يثبت سكناه ولا سكنى عائلته بها على الرغم من ان كل المصادر تذكره باسم القبتــوري ، نسبة الى قبتورة وهي ناحية يحيط بها الوادي الكبير جنوب غربي اشبيليـــة والمعروفة اليوم باسم Isla Mayor وذكــر De Slane انها كانت في العهود السابقة للاسلام تعرف باسم Caput Tauri (39) وعند ما عربت اصبحــت قبتورة او كبتورة (40) .

ولادته وعائلته : تتفق اكثر المصادر على انه ولد باشبيلية في شهر شوال من سنة 615 (ديسمبر 1218 وجانفي 1219) دون ان تدل على يوم الولادة

لا نعرف من عائلته غير رجلين أولهما والده الذي ذكـــــره التجيبي الرحالة ووصفه بالشيخ الصالح الحافظ (41) وأخبر ابن الخطيب انه كان من تلاميذ الشيخ ابي العباس احمد الاموي العشاب (42) وقد كتب قصيداً في رثاء شيخه هذا (43) ، وثانيهما عبد الحق بن احمد الغافقي الكبتوري الذي ذكره ابن خير في فهرسته والذي كان يعيش في القرن السادس الهجري باشـــبيلية وعلى الرغم من انه لا يحمل اسم احد اجداد المؤلف فانه من المتوقع ان يكون من عائلته (44) .

شبابه وتكوينه الثقافي : يبدو ان القبتوري قضى طفولته وشبابه بمدينة اشبيلية ولم يغادرها الا غداة استيلاء الاسبان عليها سنــــة 646/1248 مع

---

39) De Slane : ترجمة تاريخ ابن خلدون 4 : 113 (التعليق)

40) ابن الخطيب : الاحاطة 1 : 221 .

41) التجيبي : مستفاد الرحلة ص 451 .

42) هو احمد بن محمد بن مفرج الاموي المعروف بابن الرومية ، الـــزركلي : الاعلام 1 : 210 .

43) ابن الخطيب : الاحاطة 1 : 221 .

44) ابن خير : الفهرسة 417 .

مجموعات المهاجرين . وقد اخذ بها عن والده الذي كان ــ كما عرفناه ــ شاعراً وحافظاً (45) وكان من اشهر اساتذة القبتوري باشبيلية ابو الحسن الدباج الذي درّس القراءات والنحو بها طيلة خمسين سنة (46) وابن ابي الربيع النحوي (47) الشهير الذي درس باشبيلية ثم بسبتة وخلال رحلتيه الى المشرق اخذ عن النجيب بن الصيقل (48) بالقاهرة وابي الحسن الغرافي (49) بالاسكندرية وابن برهان الطبري (50) بمكة .

رحلاته ووظائفه : للقبتوري ثلاث رحلات معروفة . الاولى هجرته من اشبيلية الى سبتة عند ما آذنت شمس الاسلام بالمغيب من مدينة اشبيلية وليس بين ايدينا ما يُثبتُ تاريخ هجرته الا ما نستنتجه من الرسالة السابعة من انها كتبت سنة 1249/647 وذلك يعني انه ورد على سبتة قبل هذا التاريخ . وعند وروده على سبتة كانت هذه المدينة تحت الامارة العزفية في عهد ابي القاسم العزفي فوقع عليه اختيار الامير ليكون كاتب ديوانه ، واقام على هذه الوظيفة طيلة عهد ابي القاسم العزفي الذي دام ثلاثين سنة وعهد ابنه ابي حاتم الذي لم يدم طويلا اذ خلع بعد سنة من ولايته وتولى مكانه اخوه ابو طالب سنة 678/ 1280 وبقي بسبتة بعد ذلك الى سنة 1287/696 تاريخ كتابته للاجازتين اللتين بعث بهما لابي الفضل التجاني .

---

45) انفرد ابن جابر الوادي آشي وابن القاضي بذكر اخذه عن والده ، انظر مخطوطة تونس لكتاب درة الحجال رقم 2927 واصبحت الآن بالمكتبة الوطنية برقم 8318 ورقة 53 ــ ب ومخطوطة تونس من برنامج ابن جابر الوادي آشي ورقة 9 ــ أ .

46) ترجمه ابن الزبير : صلة الصلة 137 ، الرعيني : البرنامج 88 ، ابن سعيد : المغرب 1 : 255 .

47) بروكلمان 1 : 313 . والملحقات 1 : 547 ، وهو صاحب البرنامج الذي حققه الدكتور الأهواني ونشره سنة 1955 بمصر في مجلة معهد المخطوطات العربية .

48) هو عبد اللطيف بن عبد المؤمن الحراني المعروف بابن الصيقل توفي سنة 1273/672 ، الزركلي : الاعلام 4 : 182 ــ 183 .

49) هو ابو الحسن علي الغرافي المحدث بالاسكندرية توفي سنة 1306/706 . انظر الذهبي : المعجم (مخطوط الازهرية) ورقة 193 أ .

50) هو ابراهيم بن محمد الطبري المعروف بابن برهان توفي سنة 1322/722 ، انظر ابن العماد : شذرات الذهب 6 : 56 .

والرحلة الثانية كانت الى المشرق في المرحلة الزمنيـــة التي كان فيها كاتب ديوان انشاء سبتة اشار اليها بعض المترجمين (51) ولم يذكـــروا تاريخها ولكن بتتبع تواريخ وفيات شيوخه من المشارقة نستطيع ان ندرك أنها كانت قبل سنة 1273/672 ، نظرا الى ان احد شيوخه هؤلاء قد مات في هـــذه السنة وهو النجيب بن الصيقل .

والرحلة الثالثة الى المشرق قام بها وله من العمر 81 سنة وهي التي حدد تاريخها التجيبي في رحلته نظرا الى انه رافقه في مصر وفي الحجـــاز سنة 1297/696 وقد كان القبتوري على نية المجاورة بالمدينة فأقام بها من سنة 696هـ الى 704 تاريخ وفاته .

والذي يجدر بنا ان نلاحظ هنا اننا عثرنا على تاريخ إجازتيْه اللتين بعث بهما لابي الفضل التجاني التونسي من مدينـــة سبتة مع ابن رشيـــد الرحالة (52) فالثانية منهما كتبت يوم 1 شعبان 11/686 سبتمبر 1287 ، وبقيت بذلك فترة تقارب العشر سنوات من حياة القبتوري غامضة وغيـر واضحة ، وهي الفترة التي بين سنة 1287/686 تاريخ هذه الاجازة وسنـــة 1297/696 – تاريخ رحلته الأخير – فليس في الرسائل ولا في غيرهـــا من المصادر ما يثبت انه بقي بسبتة بعد سنة 686هـ . لذلك يمكننا ان نتساءل : هل اقـــام القبتوري بسبتة بعد هذا التاريخ ؟ ام هل سافر الى غيرها ؟ ليس في الامكان توضيح هذا الغموض نظراً لانعدام المصادر الموفية بالغرض ، وانما يمكن ان نتوقع انه قضاها بتونس في التدريس نظراً الى ان الصفدي والمقري يذكران انه درس الحديث بتونس ، اما ابن جابر فانه يذكر انه سمع عليه الحديث في خطرتيه عليها (53) فلعله اقام بتونس امدا وترك فيها نسخة من مختارات رسائله التي كتبها عند ما كان بديوان انشاء سبتة وهو ما يفسر لنا وجود هذه النسخـــة الوحيدة بمكتبة جامع الزيتونة ، ومما يؤكد ذلك ان هذه النسخة ذات خـــط اندلسي جميل وهي قديمة الورق والكتابة تنعدم منها الاخطاء مما يسمـــح لنا

---

51) الصفدي وابن حجر والمقري والسيوطي .

52) ابن رشيد : الرحلة (مخطوط رقم 1725) ورقة 45 – ك أ – الى 47 – أ .

53) ابن جابر : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 – ب .

بأن نظن انها نسخة كتبت بخط المؤلف ، خاصة وان في اول الرسالة الاولى قوله :« قال العبد المعترف بذنوبه ... » وفي اوائل ثمانية من الرسائل (من الثانية الى التاسعة) ما نصه : « وكتبتُ » ، وفي الرسالتين الأخيرتين حذف الفعلُ « كَتَبْتُ » وقال ما نصه : « وعَنْها » اي وعن الامارة العزفية .

وقد اتّفقتْ المصادر على انه جاور بمكة والمدينة الى نهاية حياته ولعله قام فيهما بعمل تعليمي نظراً الى أن الصفدي ـ نقلا عن ابن جابر ـ يذكر ان القبتوري انشد لتلميذه ابن سيد الناس بعض ابيات له وذلك سنة 703/1303.

تلاميذه : لم يذكر اي واحد من المترجمين له قائمة لتلاميذ القبتوري وانما استفدنا من بعض المصادر بعض اسماء تلاميذه فابن رشيد والتجيبي وابن جابر الوادي آشي يذكرون اخذهم عنه . فقد ذكره ابن رشيد وقال عنه «شيخنا» (54) وذكر ان التجيبي تتلمذ له بقوله «شيخنا وبركتنا» (55) وعده ابن جابر الوادي آشي من بين شيوخه وانه اجازه اجازة عامة فيما يحمله وما له من منظوم ومنثور (56) وذكر في نهاية **برنامجه** انه قرا عليه قصيدة في الزهد على حروف المعجم من نظم جعفر بن محمد بن السراج وكتابين في الحديث(57) ودلت بعض هذه المصادر على غيرهم من تلامذته ، واهمهم ابن سيد الناس بالمدينة وابو حيان الأندلسي بمصر وعبد المهين الحضرمي بالمغرب (58) ولا شك في ان غيرهم تتلمذوا عليه ولكنهم لم يعرفوا لان المصادر اهملت ذكرهم .

ويتضح لنا من كلام تلاميذه عنه انه كان من اوفر الشيوخ حظا في التقدير لديهم واعلامهم عندهم في درجات الاحترام والتبجيل ، لذلك لاحظنا ان التجيبي يذكره بما نصه : « شيخنا وسيدنا وعمدتنا وذخيرتنا وبركتنا ورفيقنا » (59) .

---

54) ابن رشيد : الرحلة (المخطوط رقم 1735) ورقة 45 ـ ب (المخطوط 1736) ورقة 23 ـ ب .

55) التجيبي : مستفاد الرحلة ص 451 .

56) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 ـ أ .

57) نفس المصدر (مخطوط الاسكوريال) ورقات 95 ا ، 98 ب ، 111 ب .

58) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ص 309 .

59) التجيبي : مستفاد الرحلة 451 .

وعند ما عاد ابن رشيد الى وطنه سبتة سنة 686/1286 حاملا معـــه استدعاء للاجازة من صديقه واصل الغاية ابي الفضل محمد بن علي التجاني التونسي لكبار رجال العلم بالمغرب قدّم ابن رشيد استدعاء صديقه لجملة من الشيوخ ومن بينهم القبتوري فأجاب عدد منهم عن الاستدعاء الشعري باجازات شعرية ايضا ولما ذكر الاجازات افتتحها بايراد اجزتين كتبهما القبتوري وقال ابن رشيد في ذلك .

« فمن أجلّ من كتب فيها من الشيوخ شيخنا الكاتب البليغ ابو القاسم القبتوري » .

«وهو من له في هذه الصناعة القَدَم والقِدَم والتَّقدُم والرسوخ» (60) واورد الاجازة الأولى كاملة وبها 17 بيتا مطلعها :

البّي من اهاب لأن يجــاز ا ابا الفضل المعجّز ان يجـــازى

ثم قال ابن رشيد : « انشدها لي قائلها وكتبها بخطه البارع الــــذي برز فيه من هذه الطائفة على العِلية واستحقّ ــ كما قيل ــ ان يقوم لصاحبه مقام النسبة والحلية » (61) ثمّ اورد ابن رشيد إجازة شعرية ثانية كتبهـــــا القبتوري لأبي الفضل التجاني وبها 18 بيتا طالعها :

ايها السيد الذي طال طــولا فأرانا صدوره اعجــــــازه

واتبعها القبتوري برسالة نثرية قصيرة للمستدعي ابي الفضـــــــل التجاني (62) .

---

60) ابن رشيد : الرحلة (مخطوط رقم 1735) ورقة 45 ــ ب .

61) نفس المصدر : ورقة 46 ــ أ .

62) نفس المصدر ورقة 46 أ 47 أ . وقد نشرت نصوص الاستدعاء والاجازات في بحث للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة بعنوان : ابو الفضل التجاني كما يصوره ابــــن رشيد في رحلته . النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين بتونس العدد الاول سنة 1971 ص 257 ــ 294 .

زهده : تكاد تجمع المصادر على وصف القبتوري بالزهد والصلاح وتجعله من اهل التقى والخير ، فان التجيبي تلميذه ورفيقه في السفر قلّما ذكـره في رحلته باسمه مجردا عن هذه الأوصاف فكان الغالب عليه ان يذكره بما يثبت اعتقاده في صلاحه وبركته وفضله مثل « سيدنا وبركتنا » (63) الامام الصالح الفاضل ابو القاسم القبتوري اعاد الله تعالى علي من بركاته ونفعنـــا بصالح دعواته واطال حياة الخير بطول حياته » (64) « شيخنا وسيدنا ورفيقنا الامام الفاضل » (65) « شيخنا وسيدنا وعمدتنا وذخيرتنا وبركتنا ... مجاور رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزيل طابة» (66) «العلامة الاوحد جار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابو القاسم القبتوري المذكور اعاد الله من بركاته» (67) ووصفه ابن جابر بجار المدينة المشرفة (68) واتفق الذهبي الصفدي وابـــن حجر على وصفه بالتقوى والخير (69) .

هذا وان تظافر الشهادات على صلاح القبتوري وتقاه وخاصة ممـن عاصره وتتلمذ عليه ورحل معه ـ لا يمكن ان يكون الا حقيقة لا مجال للشـــك فيها لما نجده في شعره من دلائل على ذلك فان كل ما بقي بين ايدينا من اشعاره لم يخرج عن الطابع الزهدي الديني غير قصيدتي الاجازتين .

فالمقطوعات الخمسة التي تناقلتها المصادر عن ابن جابر والصفدي (70) لم تتناول موضوعا غير الدعاء والاستغفار او الحسرة والندم على ذنـــوب فائتة والتخميسات الاربع التي نقلها التجيبي لم تكن غير تخميسات لابيات في

63) التجيبي ، مستفاد الرحلة ص 35 .

64) نفس المصدر 197 .

65) نفس المصدر 214 .

66) نفس المصدر 448 .

67) نفس المصدر 452 .

68) ابن جابر . البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 أ .

69) الصفدي . الوافي (مخطوط تونس) ورقة 38 أ . ابن حجر . الدرر 2 . 85 .

70) انظر هذه المقطوعات في نقلنا للترجمتين ، انظر اسفله ص 35 ـ 36 .

الزهد او الاستغفار او مدح الكعبة (71) والقصيدة الوحيدة له في رحـــــلة التجيبي لم يكن موضوعها غير تعبير عن فرحة مسلم صادق بالمواجهة المكية الشريفة وهذا نصها :

الله اكبر لاح بيت الهـــــي ... متسربلا خلع السنا والجـاه
مثل العروس بدا بصفحة خدها ... خال لديه شفاء ظِمْء شفاه
اعظم به بيتا تضاءلـــت البيو ... ت الساميات لعُظمه المتناهي
مهوى قلوب العالمين المعـتزى ... للعز فيه جل عن اشبـــــاه
تغدو الملوك لديه صاغرة معفـــ ... ـرة لأشمخ آنف وجبـــاه
اوزارُ زائره تحطّ ورفـــده (72) ... ملء السماء به الاله يباهي
قرت نواظر كل راء متع اللـ ... حظات في ذاك الرواء الباهـــي
ورنا لزاهر نوره الداري علـــى ... لألاء كل النبوات الزاهـــي
امبلغا منه المنى وقـره مبـ ... ـلغ جهد نفسك لا دهاك الداهـي
وصفات نفسك زكّها فيه ولا ... تنطق لسانك عنده بسفــاه
وتَنَاءَ عن شأن يشينك وليكـــن ... لك من نهاك على القبائح نـاء
وصل التضرع والتذلل جاهدا ... فعل المنيب المخبـت الاواه
نفسي اردت بما ذكرت فان لـــي ... فيها لشغلا عنه لست بسـاه
وذخيرتي حب النبي وآلــــه ... لغد اذا حشر الانام الهــي
واليه مستنداً ركنت فانه الـ ... سند القوي وما سـواه واهِ (73)

ولعل من اصدق ما يدل على تقاه وتدينه واشتهاره بذلك امران هما :

أ) القصة التي رواها عنه تلميذه التجيبي وقد ذكر فيها ان البحر هال على مركبهم في الجواز من عيذاب الى جدة فلقي الركاب من ذلك عنتا وفزعا واضطرهم الموج الى الرجوع الى الساحل مرتين ، وفي المرة الثانية آووا الى

71) التجيبي . مستفاد الرحلة ص 35 ، 36 ، 448 — 451 ، 452 — 453 .

72) كذا بالمطبوع والمخطوط .

73) التجيبي : مستفاد الرحلة 228 — 229 .

مرسى خال ليس فيه ماء بقوا به اياما ــ هو موسى المربوطة ــ وسلموا من الهلاك فقدموا الشيخ ابا القاسم القبتوري للصلاة بالجماعة قال : « فصلى بنا ما قدر ثم لما سلم من آخر الصلاة دعا لنا دعاء حسناً وامَّن الحاضرون » (74) .

ب) في بيتين من شعره ما يدل على انه ندم على توليه كتابة ديـــوان الانشاء وقيامه بوظيف يضطره الى ان يكتب الرسائل السياسية التي لا تخلو من مدح او ذم او غير ذلك مما تفرضه السياسة ، وذلك عندما يقول :

ما ذا جنيت على نفسي بما كتبـت	كفّي فياويح نفسي من اذى كفّي
ولو يشاء الذي اجرى عليّ بـــذا	قضاءه الكف عنه كنت ذا كف (75)

وفـاتـه : توفي الغافقي القبتوري في اواسط (76) سنـــة 704/1304 بالمدينة المنورة ودفن بها .

من ترجمات المصادر له :

ولعله من المفيد ان ننقل ترجمتين للقبتوري يعتبران من اهم الترجمات واقدمها وهما ترجمة ابن جابر الوادي آشي وترجمة الصفدي له .

قال ابن جابر الوادي آشي :

« الشيخ الفقيه الكاتب البليغ المحدّث جار المدينة المشرفة ــ على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحية ــ ابو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القبتوري الاشبيلي ــ رحمه الله تعالى ــ مولده بها في شوال عام خمسة عشر وستمائة واظنه قال في الخامس والعشرين منه . اخذ عن والده والاستاذ ابي الحسن الدباج وابي الحسين ابن ابي الربيع وابي امية

74) نفس المصدر 212 — 214 .

75) الصفدي . الوافي (مخطوط تونس) ورقة 38 — أ .

76) كذا اورد الخبر ابن جابر الوادي آشي في البرنامج (مخطوط تونس) ورقـة 9 ــ ب . في حين ان ابن حجر في الدرر الكامنة (2 : 85) والسيوطي في بغية الوعاة (ص242) يذكران انه مات في اوائل سنة 704 هـ .

ابراهيم بن حمدون الشرفي وغيرهم ، واجازه جماعة من اهل المشرق بافادة ابي اسحاق البلفيقي .

قرأت عليه وسمعت بتونس في خَطْرَتَيْه عليها وانشدني من نظمه كثيراً وكتب لي بخطه فمنه :

أجرْني يا إلهي من ذنــوب ابت نفسي لها غير ارتكاب
وخُذْ بيدي فاني في مهاوي الـ ـهلاك الوقت بعد الوقت كَابـي

واجازني اجازة عامة فيما يحمله من منظوم ومنثور . وتوفي بالمدينة المشرفة في وسط سنة اربع وسبعمائة » (77) .

وقال الصفدي (78) .

خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف بن محمد بن خلف بن عبد العزيز بن محمد ابو القاسم الكاتب الغافقي القبتوري — بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح التاء ثالثة الحروف وسكون الواو بعدها — ، الاشبيلي المولد والمنشأ . ولد في شوال سنة 615 هـ ، قرأ على الاستاذ ابي الحسن الدبّاج **كتاب سيبويه** وقرأ عليه بالسبع ، وقرأ **الشفا** بسبتة على عبد الله بن القاسم الانصاري ، وله باع مديد في الترسل مع التقوى والخير ، وله اجازة من الرضيّ بن البرهان والنجيب بن الصيقل ، وكتب لأمير سبتة ، وحدّث بتونس عن الغَرّافِي وجاور زمانا ، وتوفي بالمدينة سنة 704هـ ، وحج مرتين ، وجاور زمانا . اخبرني العلامة اثير الدين من لفظه ، قال : قدم القاهرة مرتين وحجّ في الاولى وانشدني قال : انشدني من لفظه لنفسه :

أسيلي الدّمع يا عيني ولكــن دماً ويقلّ ذلك لي أسيلـي
فكم في التُرْب من طَرْفٍ كحيـل لِترْب لي ومن خدٍّ أسيـل

---

77) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 أ — 9 ب .

78) الصفدي : الوافي بالوفيات (مخطوط تونس) ورقة 38 — أ .

وانشدني ايضا ، قال انشدني لنفسه :

ماذا جنيتُ علـى نفسي بما كتبت	كفِّي فياويح نفسي مِن أذى كفِّي
ولو يشاء الذي اجرى عَلَيَّ بـذا	قضاءَهُ الكفَّ عنه كنتُ ذا كفٍّ

وانشدني ، قال : وانشدني لنفسه :

واحسرتا لأمور ليس يبلغـها	مالي ، وهنّ مُنَى نفسي وآمالـي
اصبحت كالآل لا جدوى لدَيَّ وما	آلوتُ جُهْداً ولكي جدّي الآلـي

وانشدني العلاّمة فتح الدين بن سيد الناس من لفظـه ، قـال :
انشدني المذكور لنفسه بالحرم الشريف النبوي سنة 703 هـ :

رجوتُك يا رحمان إنَّك خَيْر مـن	رجاه لغفران الجرائم مُرْتَـجٍ
فرحمتك العظمى التي ليس بَابُها	وحاشاك في وجه المسيء بِمُرتَج

قلت : شعر جيّد ، لكنه متكلّف » .

آثـاره : على الرغم من ان المصادر وصفت القبتوري بكونه محدثاً يدرّس الحديث بتونس واعتبرته من النحاة نظراً لتخرجه على اقطاب النحـو بالأندلس ، وترجمهُ السيوطي في كتاب **بغية الوعاة** الذي خصصه للتعريـف باللغويين والنحاة ، فاننا لم نجد ذكراً لتآليف له في هذين الفنين ، ولم نعثـر على انتاج له غير قصائد ومقطعات شعرية ومجموعة من الرسائل التي كتبها عن الامارة العزفية .

الأشـعـار : من خلال المصادر المعتمدة استطعنا ان نعثر علـى مجموعة من المقطوعات والقصائد لا تتجاوز الأثني عشر . ذكـر التجيبي في رحلته منها خمسة واورد ابن رشيد منها اثنتان هما إجازتان نظمها القبتوري لأحد المستجيزين وخمس مقطوعات قصيرة اوردها المؤلفون في ترجماتهم له . ولكن التجيبي في آخر **برنامجه** يذكر ان للقبتوري اناشيد فلعله ذكر منها طرفا في اوائل كتابه او وسطه ، ولا نستطيع ان نعرف على وجه التدقيق هل جمعت

هذه الأناشيد والاشعار في ديوان ام بقيت مبعثرة غير مجموعة تناقلها الناس.
وكان ابو حيان الغرناطي اكثرهم رواية لشعر القبتوري (79) ولكن الظن يميل بنا الى ان اشعاره كانت قد جمعت نظراً الى ان ابن جابر ذكر ان القبتوري اجازه اجازة عامة في ما له من منظوم ومنثور (80) .

هذا وان القاريء لشعر القبتوري يجد ان الأغراض فيه لا تتعدى ان تكون تعبيراً عن عاطفة دينية جياشة او حكمة او تصويرا لحالات نفسية يائسة حزينة مع ولوع واضح بالتخميس . اما المستوى الفني لهذا الشعر فلا يمكن ان يعتبر الا رديئاً نظراً لما يغلب عليه من تكلـّف وصناعة لفظية تبعد بصاحبه عن ان يكون معدوداً من بين كبار الشعراء والمبرزين في الادب الشعري في عصره . ولا يمكن في هذا المجال ان نعتبر رأي المقري في كتابه نفح الطيب الذي روى فيه بيتين للقبتوري واعتبرهما من فضائل الاندلسيين (81) نظراً لما فيهما من تكلف وصناعة ، والبيتان هما :

اسيلي الدمع يا عيني ولكن	دماً ويقل ذلك لي اسيلي
فكم في التـّرب من طرف كحيل	لتِرب لي ومن خدٍ أسيلِ

فهذا المستوى من الشعر لا يسمح لنا بجعل القبتوري في صف معاصريه من كبار الشعراء كأبي المطرف بن عميرة ومالك بن المرحل وابي اسحاق الاسرائيلي الاسلامي وغيرهم .

فلم يكن القبتوري غير ناظم متكلف لا يملك نـَفـَساً شعرياً طويلا ولا إيحاءً جيـّاشا ، ولكن كان جزعه من الموت صادقاً إلا انه لم يكن ينتزع منه التعبير الفنـّي الرائع ولا الصور المبتدعة الجميلة نظراً الى انه شديد الحرص على إثارة إعجاب قرائه بما يقدّمه من غريب الألفاظ وعويص الاستعمالات ، وهو يريد ان يبدو في صورة المتحكّم في اللفظ المتصرّف في اشكاله وهيآته،

79) المقري : نفح الطيب 5 : 13 .

80) ابن جابر : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 – ب .

81) المقري : نفح الطيب 5 : 13 .

يلتزم فيه بالاكثار والمبالغة المُتْعِبة من استعمال انواع الطّباق والجناس والتشابيه والاستعارات وغير ذلك من ضروب المحسنات اللفظية سعياً وراء اختراعات شكلية وصوتية تعتمد إظهار البراعة في التصرف اللفظي اكثر من الاعتناء بالبحث عن المعاني النادرة والمؤثرة .

واذا كان هذا النمط من الانتاج الأدبي قد شاع امره بين ابناء عصر القبتوري والعصور التي تلته فان القبتوري يعتبر من اكثرهم اعتناء به ومبالغة في الخضوع له .

ويمكننا ان نتساءل بعد ذلك ، هل في استطاعتنا ان نرسم صـــورة واضحة لخصائص القبتوري الخُلُقية والنفسية من خلال ما وجدناه مـــن شعره ؟ ان هذه القصائد القليلة والمقطوعات القصيرة لا تستطيع ان تقدم لنا إلا صورة جزئية وغير واضحة لشخصية الرجل بسبب قِلَّتها ومن ناحية وعدم توفر الفيض العاطفي والصدق الفني فيها من ناحية اخرى .

الـنـثـر : ذكرت بعض المصادر علاقة الغافقي بالامارة العزفيـــة واثبتت انه كان تولّى كتابة ديوان الانشاء بسبتة في عهدها واكتفت بعـــض المصادر الاخرى بذكر مكانته الممتازة بين الكتاب والمترسّلين في عصره : فقد وصفه ابن رشيد مرة بأنه « بقية الكتاب وصدر اهل الآداب » (82) وثانية بأنه « شيخ الكتاب وخاتمة اهل الآداب » (83) وثالثة بان له في صناعة الأدب « القَدَم والقِدم والتَّقدُّم والرسوخ » (84) . ووصفه التجيبي بأنه « إمـــام الكتاب » (85) اما ابن جابر الوادي آشي فقد قال عنه « الكاتب البليغ » (86) ووصفه الذهبي والصَّفدي وابن حجر بانه « له باع مديد في الترسـل » (87)

---

82) ابن رشيد : الرحلة (مخطوط رقم 1736) ورقة 16 ـ ب .

83) نفس المصدر ورقة 23 ـ ب .

84) نفس المصدر (المخطوط 1735) ورقة 45 ـ ب .

85) التجيبي : مستفاد الرحلة 350 ، 351 .

86) ابن جابر : البرنامج (مخطوط تونس) ورقة 9 ـ أ .

87) الصفدي : الوافي (مخطوط تونس) ورقة 38 ـ أ ، ابن حجر : الدرر 2 : 85

ولم يعلن لنا اي مؤلف منهم عن وجود كتاب يجمع هذه الرسائل التي كتبها القبتوري إلا ما قاله هو بنفسه في إجازته لابي الفضل التجاني :

فله حمل ما يشاء من انشا ئي إن نـيفه ارتضى واستجازه (88)

وعند ما انصرفت عناية شيخي فضيلة الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة الى كتاب **منهاج البلغاء** لابي الحسن حازم القرطاجني اشار في مقدمة تحقيقه الى وجود **رسائل الغافقي القبتوري** ضمن المجموع الذي يضم **منهاج** حازم (89) وبتوجيه رفيق منه وجدت في نفسي تطلعا الى هذه الرسائل التي نسبت بصفة واضحة الى خلف بن عبد العزيز الغافقي القبتوري على الورقة الاولى من المجموع بما نصه : « ثم بعده رسائل بل يواقيت لو كتبت بسواد المقل استنزر في جانبها الأسمى ، خصوصاً الرسالة المكتوبة لأسنى مقام أرسل اليه مقام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للامام العلامة خلف بن عبد العزيز الغافقي » وفي الورقة الاولى من الرسائل ما نصه : «قال العبد المعترف بذنوبه ، الراغب لعلام غيوبه في ستر عيوبه خلف بن عبد العزيز الاشبيلي ثم القبتوري : كتبت عن السيادة العزفية القاسمية ... »

فهذه المجموعة من الرسائل الديوانية الصادرة عن الامارة العزفية والتي كتبها القبتوري تمثل القسم الثاني من المجموع الذي كان الى عهد غير بعيد من مخطوطات المكتبة العبدلية بجامع الزيتونة تحت رقم 2804 والذي اصبح ضمن مجموعة مخطوطات دار الكتب القومية بتونس تحت عدد 7994 .

وقد كان هذا القسم الثاني من المجموع عند ما تعرفت عليه مبتور الأول والآخر يضم احدى عشرة رسالة نقصت اوائل الرسالة الاولى واوخر الرسالة الحادية عشرة وسقطت ورقة من الرسالة التاسعة ، وبعد امد من البحث عثرنا على الورقتين الناقصتين (الاولى والاخيرة) ضمن مجموع آخر بدار الكتب

---

88) ابن رشيد 2 : الرحلة (مخطوط رقم 1735) ورقة 46 ـ أ .

89) انظر وصف المجموع والتعريف به في دراسة الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة التي قدم بها لمنهاج الادباء وسراج البلاغاء ،تأليف حازم القرطاجني ص 90 .

القومية بتونس برقم 2509 وامكن لي بذلك إكمال النقص والتنبيه على ذلك مما جعل القائمين على المخطوطات يضعون الورقتين في مكانيهما من المخطوط الأصلي واصبح بذلك عدد ورقات القسم الثاني 25 .

ومما لا يقبل الشك ان هذه المجموعة من الرسائل لا يمكن ان تمثّل كل المراسلات الصادرة عن إمارة سبتة العزفية خلال مدة تفوق 31 سنة ، فليست هذه المجموعة الا مختارات من مجموع الرسائل التي كتبها الغافقي القبتوري ، فقد اشارت كتب التاريخ الى كثير من المراسلات الصادرة عن امارة سبتة والواردة اليها من بينها خمس مراسلات ذكرها ابن عذاري في ما بين سنتي 655 هـ و 663 هـ (90) .

كما اورد صاحب **الذخيرة السّنية** النص الكامل لرسالتين صدرتا عن الفقيه ابي القسم العزفي اولاهما مؤرخة في شهر محرم من سنة 663/اكتوبر نوفمبر 1264 وموجهة الى « قبائل المغرب وصلحائهم يستنفرهم بها للجهاد ، كتب منها نسخا وبعثها الى سائر بلاد المغرب وبلاد المصامدة فقُرئت على الناس » (91) وثانيتهما موجّهة الى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح غزاة إبي يوسف بالاندلس وهي مؤرخة بسنة 674/1275 (92) .

ورغم ان المؤرخ لم ينسب كتابة الرسالتين الى القبتوري فانه لا شك عندي في انها من إنشائه لأمرين اثنين :

أ) انهما كتبتا في العهد الذي كان فيه القبتوري رئيس ديوان الانشاء بسبتة .

ب) انهما يحملان نفس الطابع والاسلوب والاستعمالات البديعية التي ظهرت في رسائله المجموعة في هذا المخطوط . فان الدراسة المقارنة بين

---

90) انظر ابن عذاري : البيان المغرب 3 : 419 ، 423 ، 424 ، 430 ، 439 .

91) انظر ابن ابي زرع : الذخيرة السنية (ط . المغرب) ص 102 — 108 .

92) نفس المصدر ص 152 — 156 .

هاتين الرسالتين من جهة ومجموعة الرسائل المخطوطة من جهة اخرى لا تدع مجالا للشك **في** نسبتها لكاتبنا الغافقي القبتوري (93) .

ان العارف بفن الترسل والدارس لقوانين كتابة الرسائل الديوانية عندما يطالع رسائل الغافقي القبتوري يجدها سائرة على مناهج هذا الفن خاضعة لقواعده يتمثل فيها التزام الكاتب بالحدود التي رسمها كبار الكتاب قبله مع اعتناء كبير بالجانب الأدبي الفني الذي يكون دائما الطابع المميّز لشخصية الكاتب ومكانته الأدبية .

فاذا تتبعنا **الرسائل الموحدية السبع والثلاثين** التي جُمِعت لخمسة من مشاهير كتاب العصر ونشرها (94) ثم درسها (95) ليفي بروفنسال ، نلاحظ المستوى الفني لرسائل الغافقي القبتوري التي يمكن ان تعد في درجة عالية من البراعة والاتقان .

فان الشروط التي وضعها المؤلفون لكتاب احكام الدواوين من امثال محمود الحلبي (96) في كتابه **حسن التوسل الى صناعة الترسل** (97) — وهو مشرقي معاصر للقبتوري — او التي اطال فيها القلقشندي وحللها في كتابه **صبح الاعشى** (98) تكاد تتوفر جميعها في كاتبنا القبتوري . فان ما في الرسائل ينمُ عن سعة في الثقافة الدينية من معرفة بالقرآن والحديث والعلوم اللغوية

---

93) كنت عازما على نشرهما مع هذه الرسائل ولكن الطبعة الثانية والاخيرة للذخيرة السنية قدمتهما محققتين تحقيقا علميا جعلتني اكتفي بالاحالة عليهما ، انظر اعلاه .

94) طبع بالرباط سنة 1941 .

95) بعنوان . دراسة مجموع رسائل ديوانية موحدية (صدرت بمجلة هسبيرسيس العدد 28 السنة 1941 ص 771) .

96) كحالة = معجم المؤلفين 12 = 167 — 168 .

97) منه نسخة بالمكتبة القومية بباريس تحت رقم 4436 .

98) القلقشندي : صبح الاعشى 1 : 61 — 89 ، 101 — 130 . وكتاب صبح الاعشى يعتبر دائرة معارف فن الانشاء .

والادبية من حفظ للاشعار والخطب والامثال والآثار والمعرفة بالتاريخ وايام العرب ودول الاسلام والاطلاع على ما في كتب الاحكام السلطانية وغير ذلك من ضروب المعرفة التي ذاعت بين رجـال الفكر في هذا العصـر واشترط توفرها في كتاب دواوين الانشاء .

وقد التزم القبتوري ـ كأبناء عصره ـ السجع في رسائله حتى انك لا تكاد تجد فقرة واحدة خلت منه الا ان سجعه يمتاز بكثير من الصنعة مما يجعله احيانا يستعصي على فهم القاريء له للمرة الأولى مع تفنن في زخرفة الاسجاع وغرابتها والاكثار من المحسنات البديعية والاستشهاد بالآيـــات والأحاديث او تضمينها .

فمن امثلة ذلك انه استعمل في الرسالة الاولى ما يفوق مئة جناس وخمسين استعارة واربعين طباقا . وفي الرسالة الرابعة الموجهة لمقام الرسول الكريم ضمّن او لمّح الى اكثر من خمسين آية وحديثـــاً كل ذلك في لغـــة منتقاة صقلية نقية من الاستعمالات العامية اذا ما استثنينا بعض الكلمـات الاسبانية التي لا تقبل الترجمة في حد ذاتها مثل الأفرايريين (99) وفاريـة النصارى (100) .

وكثيرا ما نجد صوره دقيقة وذات نفَس طويل يتابع الصورة ويتقصى دقائقها وجوانبها الخفية قاصدا بذلك الاستيلاء على خيال القاريء وامتلاك اعجابه ثم اقناعـه .

وعلى كل فان في هذه الرسائل من الصنعة الأدبية والاصباغ الفنية ما يجد فيه الدارسون للأدب الموحدي والمريني مصدراً له اهميته في التعرف على خصائص النثر الفني لهذه الفترة .

---

99) الافرايريون (les Frères) ؛ فرقة من رجال الكنيسة استعملوا في محاربة المسلمين بالاندلس .

100) فـاريـة : السوق التي تقام دوريا في القرى (Feria)

التعريف بالرسائل :

ان من اهم المصاعب التي تعترض الدارس للرسائل الديوانية ان لا يجد اصولها المبعوثة وانما يجد نسخها التي يكون قد نسخها صاحبها او غيره فيصرف نظره عن ذكر التواريخ او نقل الاسماء الاعلام ، وذلك لان مركز اهتمامه كان الجانب الادبي الفني في الرسائل ، وهذا ما فعله القبتوري عند ما نسخ هذه المجموعة من رسائله . فقد حذف منها جميعا تواريخها كما حذف منها العديد من الاسماء الاعلام للاشخاص وعوضها بكلمة « فلان » او بالكنية فقط ، وعلى الرغم من ذلك فاننا حاولنا ما أمكن ضبط الاعلام والتواريخ بتتبع ودراسة ما حملته هذه الرسائل من معلومات تاريخية بعد مقارنتها بالمعطيات التي احتوت عليها كتب التاريخ **كتاريخ ابن خلدون وروض القرطاس والاستقصا والبيان المغرب** وغير ذلك .

وبعد الدراسة والتتبع امكننا ان نعرف بان هذه الرسائل الاحدى عشر كتبت في ما بين سنة 647/1249 وسنة 682/1283 . وفي هذه الفترة انتقلت سبتة من تبعيتها للدولة الموحدية الى استقلال ثم الى تبعية للدولة المرينية . وكانت الرسائل دالة على هذه التحولات السياسية التي شهدتها امارة سبتة حيث وجدنا من بينها :

- اربع رسائل كتبت في عهد خضوع سبتة للدولة الموحدية وهي الرسالة السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة .

وهي موجهة الى اربعة اشخاص هم : الخليفة المرتضى ، اخوه ووزيره ابو اسحاق ، ابن الأحمر ، الولي الصالح ابو محمد الفشتالي .

- رسالتان كتبتا في عهد استقلال سبتة ، نظراً لانعدام الدعاء في أولهما لاي خليفة موحدي او مريني وهما الرسالتان الرابعة والعاشرة . واولاهما موجهة الى مقام الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - والثانية الى ابن الاحمر .

ـ خمس رسائل كتبت في عهد خضوع سبتة للدولة المرينية وهـــي الرسالة الاولى والثانية والثالثة والخامسة والحادية عشر ، وجـّهت اربعــة منها الى الخليفة المريني ابي يوسف يعقوب والاخيرة الى كبير شرفاء فاس ابي الحسن الجوطي .

الـرسالـة الاولـى

صدرت باسم ابي القاسم العزفي موجهة الى ملك تلمسان يغمراسن ابن زيان باشارة من ابي يوسف المريني ، وكتبت سنة 674/1275 بعد عقـــد الصلح بين الملك المريني وصاحب تلمسان يغمراسن (101) ، وذلك لاعلامـه بنتائج الجواز الذي قام به ابو يوسف ضد نصارى الأندلس وخاصة مـــلك قشتالة الفونس العاشر .

ومحتوى الرسالة يقدم كثيراً من التفاصيل عن مراحل هذا الجواز من لقاء ابي يوسف بالرؤساء بني اشقيلولة في رندة وانضمامهم بجنودهم الـى الجيش المريني وقد اتـّجه الجميع ناحية اشبيلية فهاجموا حصن اقـوط ثـم قلعة الوادي وحصن جيرانة وحصن طالقة ولما خرج جيش اشبيلية لمقابلـــة المسلمين انهزم النصارى ودخلوا مدينتهم فحاصرهم ابو يوسف اياما ثم عاد وفي طريقه هاجم غليانة وقطنيانة واستولى عليهما مع حصن كان يسكنـــه الافرايريون كما احتل بعد ذلك مدينة مورور (102) .

الرسالة الثانية

صدرت باسم ابي حاتـم العزفي موجهـة الى ابي يـوسف المرينـي تسجل احداث الجواز الذي قام به هذا الاخير الى العدوة الاندلسية في ربيـع الثاني من سنة 682/جوان 1283 لمهاجمة نصارى جهة قرطبة ومنتيل .

---

101) وقع الصلح سنة 173/1274 انظر الذخيرة السنية 145 .

102) قارن هذه المعلومات بما ذكره ابن ابي زرع في روض القرطاس ص233–236، والناصري : الاستقصاء 3 : 45 – 46 .

وهذه الرسالة تثير مشكلا له اهميته فان كل كتب التاريخ تـذكر ان ابا حاتم الذي تولى امارة سبتة سنة 677 وقع عزله بعد سنة تقريبا وتولاهـا بعده اي سنة 1280/678 اخوه ابو طالب العزفي في حين ان الرسالة كـتبت خلال سنة 1283/682 ولعل في هذه الرسالة دلالة على ان ابا طالـب كان يتصرف في شؤون سبتة تاركا لاخيه الكبير ابي حاتم الاسم الشرفي فتصدر الرسائل الديوانية باسمه (103) .

وفي الرسالة ما يدل على انها كتبت جواباً عن رسالة فتح وجهها اليه ابو يوسف المريني ذاكراً فيها فتوحه بالأندلس فأراد العزفي ان يجيبه مفصلا مفاخر هذه الفتوح ذاكراً العديد من الدقائق والحوادث على ترتيب المراحـل التي سلكها الملك المريني ، من مهاجمة ناحية قرطبة وجيان وابدة وما معها من الحصون ثم مهاجمته ناحية منتيل والمـُدَيْنَة وهجومه على حصن ينـج وشنت اشتبين وبيّاسة وأبَّدَة وسعيه لاطلاق سراح كثير من اسارى المسلمين بهذه النواحي (104) .

الرسالة الثالثة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي موجهة الى ابي يوسف المريني بعد جوازه الى العدوة الاندلسية في 1 جمادى الاولى سنة 676/20 سبتمبر 1277 ، جواباً له عن رسالة فتح وردت على سبتة .

وفي هذه الرسالة كسابقتيها ذكر لمراحل هذه الحملة مفصلة ، منها تكليف ابي يوسف احد احفاده ان يهاجم ناحية قرطبة فخرج من مرج بياش يهاجم حصون النصارى ويحرق زرعهم ويأسر محاربيهم الى ان حاصر قرطبة كما وجه ابنه ابا يعقوب لمهاجمة بياسة وأبدة وجيان ثم قصد بنفسه قرطبـة التي حاصرها وغنم من نواحيها الكثير وقسم المغانم قرب بـَلـَّكُونـَة ثم وجه ابنه

---

103) اشتهر ابو حاتم العزفي عند الاسبان باسم Botain, Seigneur de Ceuta انظر Duffourcq, p 234 note n° 6 .

104) قارن ما في الرسالة من معلومات تاريخية بما ذكره صاحب روض القرطاس ص 247 وما بعدها .

ابا زيان منديل لمهاجمة بياسة وابدة فسار في حملته هذه حتى جاوز العقاب ثم عاد ابو يوسف بنفسه لمهاجمة بياسة ومارتش وقنيط وبلكونه وارجونة واندوجر وغيرها ثم وجه مرة اخرى ابن اخيه الى قرطبة فهاجم نواحيها والحق به بعد ذلك ابنه ابا يعقوب في ثلاثة آلاف مقاتل فعاد بمغانم كثيرة ثم قصدها ايضا ابو يوسف بنصف جيشه فحاصرها وهاجم جهاتها (105) .

الرسالة الرابعة

كتبت هذه الرسالة باسم ابي القاسم العزفي وهي موجهة الى مقام الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم يذكر فيها ابن العزفي شوقه الى زيارة الحرم النبوي ويعبر عن تعلقه بالهدي المحمدي ومستجيراً به من كل ما يتهدد مدينة سبتة من اخطار الهجوم النصراني فيغتنم القبتوري الفرصة لابراز مقدرته وسعة معرفته بمعاني الآيات القرآنية وكثرة حفظه وأطلاعه على الأحاديث النبوية فيكتب الرسالة باسلوب يظهر فيه صدق العاطفة وحسن التصرف في الآيات القرآنية والأحاديث ومستشهداً بها تارة ومضمنا لها او مشيراً اليها اخرى مما جعلنا نجد فيها من الآيات ثلاثة وخمسين ومن الأحاديث ثمانية واربعين في صوغ عجيب الروعة جميل السبك .

واذا كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ ظهور هذه الظاهرة من المراسلات التي يوجهها بعض المؤمنين من الأمراء وغيرهم الى المقام النبوي الشريف فان اقدم ما عرفنا خبره من هذه الرسائل رسالة ابن ابي الخصال الى النبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرها ابن خير في **فهرسته** (106) ورسالة نسبت الى الأمير ابي زكرياء الحفصي المتوفى 647/1249 نقلها ابن عذاري في

---

105) قارن المعلومات الواردة في هذه الرسالة بما ذكره الناصري في الاستقصاء 3 : 47 ، 4 : 48 وروض القرطاس ص 236 وما بعدها .

106) ابن خير : الفهرسة 418 – 419 .

البيان (107) وكلتاهما سابقة لرسالة القبتوري ، ويبدو ان القبتوري تأثر الى حد بعيد برسالة ابي زكرياء الحفصي فاستلهم الكثير من معانيها واسلوبها ، وقد سلك ابن الخطيب نفس المسلك فكتب رسالتين موجهتين الى الرسول الأعظم ضمنها كتابه **ريحانة الكتاب** (108) ونقلها المقري (109) والقلقشندي (110) .

وتعتبر رسالة القبتوري من بين احسن ما عرف من الرسائل الموجهة للرسول الكريم وابدعها تفننا .

ويبدو ان هذه الرسالة كتبت في عهد استقلال سبتة لانعدام ذكر الدعاء للأمراء الموحدين او المرينيين فتكون قد كتبت في ما بين سنة 1255/653 و 1273/672 .

الرسالة الخامسة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي موجهة الى الشرفاء بمدينة فاس ولا يمكن ان نحدد تاريخ الرسالة بصفة مدققة وانما فيها ما يدل على انها كتبت في الفترة التي كانت فيها سبتة تحت السلطة المرينية في عهد ابي يوسف لانها تحمل في واوائلها دعاء لهذا الامير المريني .

وليس في هذه الرسالة الا اعلان العزفي ولاءه وتقديره للشرفاء بهذه المدينة وانشغاله بالخبر الذي بلغه عن مرض كبير الشرفاء ابي الحسن الجوطي (111) ثم فرحه وابتهاجه بخبر شفائه الذي بلغه عن طريق احد الوافدين عليه من شيعة الشرفاء وهو المؤذن ابو العباس .

---

107) ابن عذاري : البيان المغرب (ط تطوان) 3 : 394 — 398 .

108) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوطة تونس) ورقة 20 ب الى 36 — ب .

109) المقري : نفح الطيب 9 : 58 — 83 .

110) القلقشندي : صبح الاعشى 6 : 469 — 476 .

111) في نص الرسالة لم يذكر الاسم الكامل لكبير الشرفاء وانما وقع الاكتفاء بذكر الكنية . وامكن لنا ان نعرف الشخص بما وجد في الرسالة الاخيرة .

الرسالة السادسة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي ووجهت الى الولي الصالح الشيخ ابي محمد الفشتالي يعبر له عن عزمه على امداده بكل ما يبلغه من اخبار 647 هـ/1249 م — 652/1254 .

وبعد ان يؤكد ابو القاسم العزفي ولاءه وعظيم تقديره للولي الصالح ابي محمد الفشتالي يعبر له عن عزمه على امداده بكل ما يبلغه من اخبار الاندلس وتحركات النصارى بها .

وفي هذه الرسالة ما يدل على ان مراسلة سابقة متبادلة بين الرجلين.

الرسالة السابعة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي ووجهت الى السيد ابـي اسحاق الموحدي اخي المرتضى ومقدمه على الوزراء (112) .

ويبدو ان هذه الرسالة كتبت سنة 647/1250 اي في سنة قيام الامارة العزفية بعد ان اعلن اعترافه بالسلطة الموحدية .

واهم ما في هذه الرسالة ما اعلم العزفي به السيد ابا اسحاق من انه تقرر ان يرسل مجموعة من اعيان سبتة ليقدموا البيعة الى المرتضى وليعرضوا عليه مشاكل المدينة ويطلبوا منه امدادها بمعونته .

ويطلب ابن العزفي من الوزير السيد ابي اسحاق ان يهييء لهم اسباب النجاح في مهمتهم ويسعى لدى الخليفة ليتم قبولهم والاستجابة الى مطالبهم .

---

112) لم تذكر الرسالة من اسم الوزير الا كنيته ، وفي البيان لابن عذاري ما يدل على انه السيد ابو اسحاق اخو المرتضى وهو اكبر منه سنا « وقدمه على الوزارة والنظر في الامور » ابن عذاري : البيان 3 : 391 .

الرسالة الثامنة

صدرت باسم الاشياخ والاعيان من اهل سبتة الى المرتضى الموحدي ويبدو ان هذه الرسالة كتبت في اول العهد العزفي نظراً الى انها صدرت باسم اشياخ سبتة واشتملت على تزكية العزفي .

ففيها التذكير باهمية سبتة كثغر لحماية البلاد الاسلامية اذ هي اقرب ديار الاسلام من النصارى وتكالب الأعداء حوله من ملوك الاسبان او ممن هم شرٌ منهم من المتحالفين مع النصارى الذين يستنهضون الاعداء للهجوم على المسلمين ويطلعونهم على اسرارهم وعوراتهم (وفي ذلك اشارة الى ابن الأحمر) ، والشهادة منهم في اخلاص العزفي وحسن سلوكه وسياسته وتصرفه ، ثم ذكر صلح انعقد بين سبتة وقشتالة تدفع بموجبه سبتة الى الملك الاسباني مقدار 40 الف دينار مع اطلاق سراح مجموعة من اسرى النصارى ، ومدته سنتان ، وتم هذا الصلح بايعاز من الخليفة المرتضى .

كُتِبت هذه الرسالة قبل نهاية السنة الثانية من الصلح باربعة اشهر فطلب الملك القشتالي ان يرفع مقداره الى 70 الف دينار لسنتين اخريين مدّعيا ان الثلاثين الفاً الزائدةَ على الاربعين هي مقابل قيمة الاسرى المسرّحين في الاتفاق السابق مظهراً العزم على الهجوم على سبتة ان لم تخضع لهذه الرغبة مستعينا ببعض الملوك من اهل ملته منهم « البرجلوني » (113) وبرجال الكنيسة الذين خرجوا لاستنفار العامة وتحريضهم على محاربة سبتة ، لذلك يطلب اشياخها الاذن باعادة عقد هذا الصلح لمدة سنتين واعانتهم بدفعه عنهم نظرا للازمة الاقتصادية التي تمر بها المدينة ، مُبيِّنين اسباب هذه الأزمة ذاكرين ان مصاريف الحرب مع النصراني ستكون ارفع مما سيدفع في هذا الصلح .

والملاحظ ان الصلح الاول لا يمكن ان يقبله اهل سبتة ولا ان يأذن به المرتضى الا بعد محاصرة المدينة من طرف النصارى ، ومن الغريب ان كل المؤرخين لهذه الفترة اهملوا ذكر هذه المحاصرة وهذا الصلح ، لذلك لم يمكن لنا تحديد تاريخ هذه الرسالة .

---

113) لعله ملك برشلونة .

الرسالة التاسعة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي موجهة الى ملك غرناطة ابي عبد الله بن الاحمر وتاريخها قبل سنة 656/1258 نظراً الى انها كتبت في حياة ابي يحيى بن عبد الحق المريني وهو قد توفي في هذا التاريخ .

في هذه الرسالة تتضح جوانب من حسن سياسة العزفي في الفترة التي ظهرت فيها بالمغرب الدولة المرينية وقويت دون ان تستطيع القضاء على بقايا الموحدين وظهرت فيها بالاندلس قوة ابن الاحمر الذي كان يطمع في توسيع ملكه على حساب الامارات العربية بجنوب الأندلس وشمال المغرب ليعوض ما كان يقدمه للنصارى من المدن والحصون . فكان العزفي يسعى الى اقناع كل هذه الاطراف ، من مرينيين وموحدين ونصريين بضرورة الحفاظ على ثغر سبتة ليبقى درعاً واقياً للبلاد الاسلامية في وجه حركة الاسترداد .

وفيها اشارة الى مراسلات متعددة سابقة قامت بين العزفي وابن الأحمر وذكر لصلح انعقد بين العزفي وأبي يحيى بن عبد الحق المريني واتفاقهما فيه على حفظ سبتة والذب على حماها مؤكداً ذلك برسالة شخصية كتبها الأمير المريني بخط يده .

نقصت من هذه الرسالة ورقة على الاقل لم نعثر عليها في المخطوط ولا في مظانّها من المجاميع رغم الالحاح الشديد في البحث .

الرسالة العاشرة

صدرت باسم ابي القاسم العزفي الى ابي محمد بن الاحمر الملك النصري وكتبت في العهد الذي كانت فيه سبتة مستقلة عن الموحين والمرينيين اي في ما بين 665/1267 و 672/1273 وذلك لخلوها من الدعاء لاي خليفة منهم.

اراد العزفي بهذه الرسالة الرد على رسالة كان بعثها لــه ابــن الاحمر يعلمه فيها باخبار الملك القشتالي واخويه واهل اوريولة ولورقة ووصول ابن صدوق (لعله من المدجّنين) مع صاحب البحر باشبيلية الى ابن الاحمر يُعْلِمانِه بمنع الزرع في ناحيته ، فقصد العزفي برسالته هذه ان يشد مــن عزمه في محنته ويقوي عزيمته على مقاومة النصارى .

الرسالة الحادية عشرة

صدرت عن ابي القاسم العزفي الى كبير الشرفاء بفاس الشيخ ابي الحسن بن ابي زكرياء الحسني الجوطي ، وكتبت في عهد تبعية سبتة للمرينيين في عهد ابي يوسف ، لما احتوت عليه من الدعاء له اي في ما بيــن 1273/672 و 1278/677 تاريخ وفاة العزفي .

وهي رسالة تعزية لابي الحسن الجوطي في ابن له توفي في عهــد الشباب كنيته ابو الفضل ، وكانت وفاته بعد عودة كبير الشرفاء من زيارتــه لسبتة واميرها ، وليس فيها من الاهمية التاريخية غير ما تثبته من الصلات التي كانت تربط بين العزفي وبين شرفاء فاس .

الرسالة الاولى

من ابــي القاسم العزفي

الـــى

يغمراسن بن زيـــان ملـــك تلمسان

كتبت سنة 1275/674

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآل محمد وسلم

قال العبد المعترفُ بذنوبه ، الراغبُ لِعلاّم غُيوبه ، في ستر عُيوبه ، خلف بن عبد العزيز الاشبيلي ثم القبتوري : كَتَبْتُ عن السيادة العزفية القاسمية ، بَوّأهَا الله تعالى غُرَفَ جِنَانِه ، ووَالَى عليها تُحَفَ رضْوَانِه ، ولُطَفَ جِنَانِه ، ليغمراسن صاحب تلمسان باشارة الأمير أبي يوسف بن عبد الحق رحمهُ الله .

إلى فلان ، وصلَ الله تعالى له علُوَّ المقدار ، وتكفّل لما أولاه من آلائه بالاطّراد والاستمرار ، وعرّفه من البُشرَ الكُبَر بمُكَيَّفِ الصنْع الكفيل لدين الاسلام بالاعلاء والاظهار ، كل متكفل لنفسه بالابهاج ولعينه بالاقرار ، سارٍ سارٌ خَبَرَه حتى يسبق شرقا وغربا ما للاسلام من القواعد والأقطار .

معظّمُ علائه ، الصارفُ لتوفية حقٍّ مَنْصِبِه الجليل عنان اعتنائه ، المُطِيبُ لذكره وثنائه ، المُهْدي له من البُشْرى بكريم صنْع الله تعالى للمؤمنين اوليائه ، في الكَفَرَة أعدائه ، ما يضمن له ولكل مَن سَمِعه مِن المسلمين الذين قِبَلَه تَمكُنَ أنسه وجذله وسرّائه ، فلان .

وبعد حمد الله تعالى الذي اعزّ نصر الاسلام وسَنّى له من سَنِيّ الفتح المُفَتّحةِ له ابواب السّماء ، ما يُعجِز وصفه ألسِنة البُلَغاء وأسِنّة الأقلام .

والصّلاة على سيّدنا محمّد نبيّه الكريم ورسوله الذي سفّه ما انصرف لعبادةِ غير الله من الأحلام ، وجَاهَد بسيفه حتى ظهر دين الله وانتشر نوره الماحِي ما دجا للكفر من الاظلام ، وعلى آله وصحْبِه الكرام ، البررة الأعلام ، المُجالِدين دونَه ــ صلى الله عليه ــ كلَّ مُنْبَرٍ بالعداوة والاذاية اليه ، الى ان القى راغماً صاغراً يدَ الانقياد والاستسلام .

والدعاء للمقام الكريم اليوسفيّ (114) السَّنِيّ الذي شـــرف بِنُصرةِ (.. .. ..) (115) فيه زَمَنُه السَّعيد ، وذُخِرَ منه لادراك ثـأره مَن في استئصال الشرك يُبْدِي ويُعيد ، بنَصرِ الألْوية والأعلام ، ومنْح الظَّفَر الذي يصْطَلِمُ اهل التثليث أتَمَّ اصطِلام .

فكُتِب إليكم كَتَب الله لكم كلَّ بشرى تعمُر بالمسَار العَميمـة ناديكُم ، وتعمُ وتشمل حواضِركُم وبواديكم ، ولا يُرى وحكم الزمان منهـا برائق السنا والسناء إلاّ كان بأجلِّ سناء واجْلى سنا مُغَاديكم ، من سبتة – كلأها الله – وألْطافُ الله تعالى بأوليائه المؤمنين قد تَجَلَّت اسرارهـا فاجتُلِيتْ عِيانا ووعده الصدق في إعلاء دينه الحقّ على الدين كله (116) قد أنْجَزَ منه ما كان الدهر به لَيَّانا ، وبركات الدعوة اليوسفيَّة المَذْخُورة لنصر الملّة الحنيفية قد بهرت شمس النهار وضوحا وبيانـا ، والأرض ذات المناكب ، تُباهي السماء ذات الكواكب ، ازدهاءً بما تأتَّى بغربها (117) من الفتوح المشرقة الأخبار الغرائب وازديانا . والحمد لله كِفَاءَ مِننه التي سوّغ عباده المسلمين جزيلَها وجمَّها ، وصنائِعه التي سنَّى لهم اكملها حُسنـا وأتَمَّها ، وأشْملها سيرة وأعمَّها ، وعن التعظيم لقدركم الجليل ، والتَّوفِيَةِ لحقِّكم الكبير والتكميل ، والعِلْم بما لكم من شِيَم الفضل المقْتضِية لكـم تَرديدَ الذكر الجميل ، والثناء الحفِيل . وتمكُّنِ المعرفة بما يُوجِبُه لكـم المقام الاماريّ اليوسفيّ – وصل الله تأييده – من مزايا التسبيق لرئاستكـم والتفضيل ، واختصاصكم من حُبِّه بأصفى ما يخُصُ الكريمُ الخليلُ للكريم الخليل ، وبأنكم تضربون بأوفر سهم في ما يصنع الله على يده لفريق الفُرقان في جِيل الأنجيل ، وبِحسب ذلكم أنْفَذَ معظِّمُكم خطابه هذا لِعلائكم الذي هو له – أعلى الله يده – من اجلِّ الأولياء الظُّهراء ، واكبر أصفيائه الاصفياء ،

---

114) اشارة الى ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني

115) كلمة مأروضة

116) القرآن : التوبة ، 33 ، الفتح ، 28 ، الصف ، 9 .

117) اشارة الى المنطقة الاندلسية المعروفة بالغرب Algarave ؛ المقـري : النفح : 1 : 128 ، 129 ، 209 ، 210 .

لتأخذوا حظكم من السرور بما صنع الله له من الصُنْع الذي فات مدى التّعبير، وفتح له من الفتوح التي تأرَّجَتْ ارجاءُ البسيط من عَرْفها العَبِقِ بأطيب من عَرْف المسك العَبِير ، ومساقُ الاعراب عن ذلكم بعد ما علمتموه من خبَر جوازه الذي لم يغبْ عن كمالكم انــه ـ ايد الله اعلامــه وحَــرس وجُوده وأدامه ـ أعمَل السعيدة حركته في يوم الثلاثاء غرة هذا الشهر الذي اعتمده مُتيمّناً مُتَبرّكاً فوجد يُمْنهُ وبركته بعد نيّة مباركة على مجــرّد النصر لدين الله تعالى عقدها ، واستنجادٍ بحول الله تعالى وقوته لا بجمُوعه وعُدَده التي أعدّها وضاعفَ عَددَها ، واستنجازٍ لِعِدَةِ نصره الصّادقة التي مَنْ نَصَره سبحانه وَعَدَها (118) فَفَصَل عن الجزيرة الخضراء في اليوم المذكور والسّعْد واصل به سَبَبَه ، واليُمْن ملازمٌ ركابه الـذي ما فارقه مُذْصَحِبه والنّصْرُ يضمن لِنَصْلِه ان يبلّغَه من ريٍّ ضَمَائِـه من دماء الكفار أربَه ، وعونُ الله تعالى كافلٌ ان يُدْنِيَ له من الأمـل في قهر الكفرة مستبعدَه ، ويسهل مُستصعبه ، فسار يطوي مراحل الفضاء ناشراً ذوائبَ مُظَفّراتِ أعْلامِه ، ماداً على البسيط رواقاً من غُبَـــارِه الذي أثَارتْه حوافرُ خَيْل جَيْشِه المنصور وقَتَامِه ، مُسْتضيئاً بنُجــوم أسِنّتِهِ في دُجى ذلك العثير وظَلامِه ، سَيْرَ مُحِبٍّ رضاء الله تعالــى لا غَيْرُ محبُوبُه ، وطالبٍ إعْزاز دينه الذي أعْوَزَه وعَزّه المُعِـــزُ مَطْلُوبُه ، وجاهِدٍ مُسْتَخْفٍ في جهادِ اعداء الله مـــا من تعبٍ ونصَبٍ يُصيبه ، ومجتهدٍ في القيام من إظهار الاسلام بما توفّر من سعادة الدارين حظّ القائمِ المجتهد فيه ونَصيبُه ، الى ان وافى رُنْدَة (119) ـ حفظها الله ـ رابع يوم انفصاله ، وعزائمُهُ المباركة في غزو الكَفَرة أمضى من قَوَاضِي أسِنّتِهِ ونصاله ، فتلقّاه هنالِكُم من الرؤســاء بني إشْقَلْيُــولَــة (120) الوافدين لصحبة ركابه السعيد ، وخدمته في مصالح عمله المُبْـــدِيء في

118) القرآن : محمد ، 7 .

119) مدينة تقع جنوبي اشبيلية (Ronda) ـ ياقوت : معجم البلدان 9 : 73 — 74

120) رؤساء ملكوا مالقة ما حولها وقاوموا الفنس الاسباني وابن الاحمر . انظر عنهم الذخيرة السنية 60 ، 82 ، 110 ، 112 ، 125 ، 140 ، 142 ، 143 .

إحياء مَيْت الاسلام بالاندلس المُعيد ، ومن وزراء رُنْدة الذين استأنفوا باجتلاء غرته المباركة الميمونة فائت العيش الحميد ، ورفلوا وهُم الشّيّب سروراً وارتياحاً في ملابس الشباب الجديد ، كُبراء وصدور ، خَلَصت لهم في المناصحة أفئدة وعُمِرت بالمخالطة صدور ، في من حشروه من اهل تَلْكُم البلاد التي كادت جماداتها ان تنحشد معهم وتنحشر ، حرصاً على جهاد عدوّهم الذي كان طغى عليهم وأشر ، ورغبةً في ان يُنيلَهُم الله عليه ما انالهم من الادالة التي هي من اعظم ما به الاسلام في قريب المعمور وبعيده بُشّر ، وهنالكم فاوَض كبار الوزراء ، ومن قدم عليه من الرؤساء والأدلاء المُعتمدي الآراء ، فبعد ان مال لقصد قرطبة وجهاتها فريق ، عَدل عنها لاشبيلية في النظر بآخرين طريق ، ترجَّح رأي قصْدِ اشبيلية ليرسل الله عليها جنده حَاصباً(121) ، ويذيقها ومن حلها من الكفرة عذابَه واصباً(122) ، اذ كانت قرطبة واحوازها عام قتل دون نُونَه (123) اللعين بكأس الصَّغار قد سُقيتْ ، وبوطأة الجيوش المظفرة الثقيلة عليها قد شَقِيَتْ ، وكانت إشبيلية لم تلق من تلكُم المِحَن ما لقيتْ ، فكانت ترى انها موقّاة من النوائب التي اتتها من حيث لم تحتسب فعركتها عرك الرحى بثفالها ما بقيت ، وهي ايضاً دار مَلِكِهِم التي يحلّها متى بهذه الجهات حلّ ، ومجمع زعماء مملكتهم الذين يتعاورون العقد والحل ، وبها الأجفان لقطع مجاز المجاهدين تُعمَّر ، وفيها ولده المُمَلَّك على جميع بلاد هذه الفُرُنْتَيْرَة (124) المُؤَمَّر ، فقصد — أيده الله — قصْدها ، ورؤوس كَفرتِها قد اينعت (125) وقد ضمن الله تعالى بسيوف اوليائه المجاهدين حصدها ، وكان اول ما مرّوا به من حصونها ،

121) القرآن : الاسراء ، 68 .

122) القرآن : النحل ، 52 .

123) هو دون نونيو دي لارا Don Nunîo Di Lara القائد الاسباني الذي قتل سنة 674/1275 في معركة قادها يعقوب المريني ، انظر الذخيرة السنية 150

124) منطقة بالاندلس (Frontera) انظر تعليق De Slane في ترجمته لمقدمة ابن خلدون ص 14

125) اشارة الى قول الحجاج بن يوسف في احدى خطبه (اني لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها) .

ومَحوط جهاتها ومصونها ، حِصن أقُوط (126) وقد تكاملت فيه للمنعة الشروط ، وجنابُه بضروب الأرزاق أمْرعُ جناب ، وبه ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين من ثمرات فواكهَ واعناب ، فكانت تلكم النِّعم نُزُلاً للمحلة المنصورة المبوأة جناتها ، وتلكم البقعة اول موقعٍ به الفاقرة بأيدي قاطفي ثَمَرِها وجُناتها ، ومنها جدَّ بالركاب العليّ السَيْر ، وقد ظللته بأجنحتها تقيه هواجر السمائم الطَّيْرُ ، الى ان صَبَّح مخاضةَ النهر الأعظم وكان الكفرةُ يظنون انهم اعتصموا منه بأمنع سورٍ عاصم ، وتمسكوا من جعله بينهم وبين المسلمين بِعُروة وُثْقى مالها من فاصم ، وعمدوا إلى شطّ المخاضة مما يلي جهتهم فأوسعوا مُستسْهَل مسلكها توعيراً ، واعادوهُ جُرفاً سامياً يرد عنه طرْف من رامه فضلا عن طِرْفِهِ حسيراً ، واذا اراد الله إنفاذ حُكمه ذلّل الصَّعْب وسهل الوعر فعاد هذا مُنقاداً وهذا يسيراً ، فلم يَرُدَّ العزمات ولم يردعها ما توهم الكَفَرة انه يردُّها ويرد عنها ، بل ترامت الهممُ بالنفوس لاقتحام تلكم المخاضة ومن عون الله لها مُنْجِدٌ لا يُسلِمُها ولا يدعُها ، وعند وصولهم لذلكم الجُرْف الذي الأبصارُ عنه تَزِلّ ، والطير بترقّيهِ لا تستقِلّ ، تنزلتْ عن خيلها الرّكاب ، وراموا التعلّق بذُراه بلا سببٍ فسنّيتْ لهم في تَسَنّمِها الأسباب ، وقادوا خيلهم بأعِنّتها وزجَرَها مَن خلْفها فما هو الا ان اعلِقت وِثاباً بها يديْها ، فاذا هي قد رمتها خلْفها بقوة ربانية زِيدتْها لما لديها ، وما جازها بهذه الصفة التي اتْعبت المُجتاز ، وحاز من رضا الله تعالى بذلكم ما حاز ، بعض العسكر المنصور حتى هدّت ذلكم الجرف السنابك ، وحطّ مرتقاه وقعها المتلاحق عليه المتدارك ، فعاد بعد طريقاً مُعبَّداً كما ضمن العضْد ، واقتضى السعد ، فكُفي جندُ الله تلكم المؤونة ، كما رُزق متجهم مشقتها عليها المعونة ، وللحين استوفى العسكر المنصور العُبُور ، واستقبل باجتلاء منظر الشرف (127) ، الحاصل مُجتلوه على الفخر والشرف ، السرور والحبور ، ومن هنالكم مال نحو قلعة الوادي (128) مَيْله

---

126) Castilo delcoté .

127) جهة قرب اشبيلية (Aljarfe) ترجمة De Slane لتاريخ ابن خلدون 4 : 86 .

128) Alcala del Rio .

وسحب عليها ذيل غارته التي استصحب الكفر لها ويلَه ، وسرح المقام الكريم في العيث رَجله وخيله ، وعرج عنها اعنته رغبة في ما هو منها أسنى ، وضرب معسكره بأحواز حصن جيرانة (129) وظهور الاسلام قد تيسر وتسنى ، وتتبعت طوائف العسكر المبارك ، ما عيّن لكل فريق منها من جهة ليس فيها بالمشارك ، فتغلغلوا في تلك القرى ، بل الجنات التي لم تر عين" مثلها حسناً ولا ترى ، وكل حديث يتحدث عن نضرتها وزهرتها ليس حديثاً يفترى ، فألفوها ملأى بخيرات ملأت ايديهم انعاماً ، ودقيقا وطعاما ، وفاكهة وإداماً ، وداوجن كترب ارضها كثرة إوزاً ودجاجاً وحماماً ، واثاثا ختم عليه اهلوه فلم تفض الا ايدي النهب عنه ختاماً ، فحيز من كل الفاخر ، ونال منه نيل الاول حظه ـ لوفور الشيء ـ الآخر ، وقتل من الكفار بكل قرية من رجالها اعداد احمرت من دمائهم صفحات خدود بيض الصفاح ، واهتزت طربا لصهيل الخيول ـ مرحا بما جرت للنصر العزيز من الذيول ـ قدود سمر الرماح ، فوردت جنود الله من تلكم النعم موارد للنعيم عذابا ، وذابت نفوس الكفار أسى لتلكم الفواقر التي اوسعتهم عذابا ، وآبت تلكم الغارات المنتشرة في تلكم الأرضين الأريضة ، مستاقة من الغنائم ما غص به رحب البسيطة العريضة ، وفي اثر الحلول وبحصن جيرانة ورد الخبر على المقام الكريم بخروج جمع إشبيلية ـ فتحها الله ـ يوهم دفاعه ، ويظهرون القوة على رفع صليبهم الذي حط الله فلا رافع له ارتفاعه ، فسار بمن انتقاه من الفرسان الأنجاد الأحرار أولي القلوب العطشى لدماء اعداء الله الحرار ، يتمنى ان يكون حقاً ما من خروجهم بلغه ، واثقاً من ربه بانه غنم" يسوغه إياه ، كما غيره سوغه ، فوصل طالقة (130) والكفرة قد كانوا أسرعوا الكر الى دارهم ، والاعتصام بجدارهم ، والفى هنالكم مصنعاً حارت الأبصار في ما احرز من جلالة الشأن ، وجمع الى ضخامة المنظر من دقائق الصنائع المذهل أوهام الفكر ما تضمنت من الاتقان ، وافرغ عليه توشية وتوشيعاً من لباس الحسن الذي لا يدرك الا بالعيان ، قصدت الرينة زوج الطاغية

129) لم أتمكن من تحديد مكانه واسمه الحالي .

130) Italica ؛ المراكشي : المعجب ص 366 .

القشتالي – لعنها الله – ان تجعله لمُتنسّكي اهل ملتها متعبَّداً ، وتَبْقى فخرها بتخليد فاخِرِه مؤبَّداً ، وان تضع بذكره ما ارتفع من الذكر في بلاد الكفرة لعظام الكنائس ، وتُزري مزية نفسها وهمتها على من بنى تلكم من اولي الهمم الرفيعة والنفوس النفائس ، فصرفت اليها اعتناءها ، وافنت عليها مِئِي آلاف من الاموال التي والت عمرها اقتناءها ، فجاءت تخال جسما واحداً وهي متضمنة اعداداً جمّة من حجر الكذان المنحوت ، متناسبة محاسن الأعالي منها والتُحُوت ، فشهِد المقام الكريم ومن حضره انهم ما ابصروا مثلها منظراً ، وبعد ان قضوا منها العجب ، وتقاضوا الأرب تأملا ونظراً ، تعاورتها المعاول ، حتى لحِق بالارض مرفوعها المتطاول ، فأصبحت بانيتُها أسوأ البانين مثلا ، قد ضلت وخسرت عملا ، واتلفت مالا واخلفت املا ، وذلت حيث لم تملك ولا ملَك لها احدٌ حولا في دفع المكروه عنها ولا حَيلا ، وانصرف المقام العلي بجيشه المنصور ، ساحباً اذيال الظهور ، رافلا في ملابس العز والحبور ، مقراً عين الايمان بما سام الشرك من ذلةٍ غدا منها بحال المقهور المحصور ، وبات بمحلّته المباركة مستطيلا ليلة سروره المفرطة القِصَر ، شوقا الى لقاء الكفرة الممكّن سيوفه من ضرب الهامِ منهم والقَصَر ، وعند الصباح وافاه بمعاودة الكفرة الخروج وارد الخبر ، فنهض اليهم والعزائم على اللقاء صادقة ، واعلامه برياح الظفر خافقة ، واصوات الطبول الخالعة قلوب الأعداء بتحريض الأولياء وتنشيطهم ناطقة ، والعساكر المؤيدة على تعبئتها متناسقة ، وقد تقدم للتشوّف على الكَفَرَة من خيار ابطاله ورجاله صحبة ابنه وحفيده الصغيرين سِنّاً الكبيرين سناءً ، الشهيرين نجدةً وغناءً ، ابي المكارم منديل وابي علي تاشفين جماعة لم يبلغوا المائتين عدداً ، لكن كان جندُ الله لهم مدداً ، فتلاقوا ومقدمة جيش الكفرة العينَ بالعين ، وهم في نيف على ثلاثمائة فارس ومن الرجال في نحو الألفين ، فلحقتهم أنَفَةٌ منعتهم من الرجوع بالخبر وقالوا لا يظُنُّ بنا الكفرة الفرارَ من الحيْن ، فانقضوا على شياطينهم رجوماً وسطوا بكلابهم أسوداً ، ورموا فيها نساءهم بالحادث الذي ردّ شعورهن بيضاً وبيض وجوههن سوداً ، وبينما المقام الكريم نحو إشبيلية سائر ، ولأخذ ثار الاسلام من طغاتها ثائر ، تلقاه بعض فرسان ابنه وحفيده

يُعْلِمونه بأن الكفرة الذين خرجوا من إشبيلية على الدفاع مُعتزمين ، ولَّوا الادبار منهزمين ، ولما اختلط جند الاسلام فرأوا ما لهم — على قلّتهم — من صدق الوثبات ، وكرم الثبات ، وايقنوا انه قد هجم عليهم الحِمام الهاجم ، إذ لم يروا إلا زغاياتٍ تنتظم بها الكُلى وسيوفاً تُخْلَى بها الجماجم ، فأطلقت أعِنَّة الخيول فاشتدّ بها السِّباق ، وقد فاز بشرف تلكم الوقعة الكبيرة اولئكم النفرُ السبَّاق ، فوجدوا الكفرة على الترامي في لُجَّةِ النهر مزدحمين، وخيل الله تعالى عليهم فيه مقتحمين ، وهم يقتلونهم فيوردونهم النار الحامية في الماء ، وقد شابت زُرْقتَه حمرةُ دمائهم المسفوكة فحاكى ما يبديه من شفقه اديم السماء ، وسائر كفرة إشبيلية محشورون برملتها ينظرون نظر المغشيٍّ عليه من الموت (131) ، ويودون ان لو كان اتى عليهم قبل معاينة ذلك المعاين الفظيع آتي الفوت ، واصوات طبول المحلة الظاهرة الظافرة ترى عِيانا فتغْني عن كل تفسير ، معنى قول الله سبحانه (فاذا نقر في الناقور فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ يسير) (132) وعادت لمحلَّتها الجيوش المظفرة السعيدة ، وقد دنت لها بارغام انوف الكفرة الطغاة الآمال البعيدة ، ومنحهم الله من جميل الصُنع وجليل الفتح ما تُقصِّر عنه الألسنة المُبدِئة في وصفه المُعيدة ، وبعد ذلكم اليوم عاود المقام الكريم التبريز على إشبيلية اياما اربعة في اتم استعداد واكمله ، واحسن زيّ واجمله ، وأعمّ سرور واشمله ، واوفى عِزّ مَن شاهده نال الاقصى من امله . وثنى الى الاياب أعِنَّته ، وقد هدَّ قوة الكفر واذهب مُنته ، ووفى الشكر فضل الله عليه ومِنته ، وفي منصرفه حاصر حصن غِليانة (133) فاستولى عليه من يومه ، ووفَّى بما أعطى من عهد الاحياء على الاسارِ لقومه ، ثم بعده انتقل لحصن قَطِنْيانَه (134) فدخل جفنه بالسيف بعد حرب ضروس ، وقتال اذاق اعداء الله كلَّ بوس ، وهبط من قصَبته من لجأ اليها على حكم الاسار ، بعد ان بلغوا

---

131) تضمين للآية 20 من سورة محمد

132) القرآن : المدثر ، 8 .

133) Gualiana

134) لم نتمكن من معرفة اسمه الحالي .

في القتال ـ لو نفعهم ـ غاية الاعذار ، وبعد ذلكم انتقل لقلعة بين لَوْرَة (135) وقسنطينة (136) صعبة المرام ، فيها من طغاة الافْرايْريِّينَ (137) عدةٌ في في نهاية النخوة والعرام ، فعرض عليهم النزول ، فقالوا : هيهات ! لسنا كمن لقيتُم فنُلقي للذل بأيدينا ، نحن عُوفُ النصارى لا حُرٌّ بوادينا ، وقد كانوا اخذوا للنزال اهبته ، واعدوا للقتال ـ على اتم ما يكون ـ عُدته ، فنفذ الأمر اليوسفي بصدقهم القتال فصُدِقُوه ، وعَهِدَ ألا يلقى المسلمون منهم كافراً عند الظفر بهم إلا قطعوه بشفارهم ومزقوه ، وجدّ اعداء الله في الحماية فلقوا من جِد اوليائه ما لم يكونوا لقوه ، وسنَّى الله فتح الحصن عليهم فتسنَّى ، واناك الاسلام في قتل من كان فيه ـ وكانوا نحو اربعمائة مقاتل الافْرابرِيئون منهم عَشرُهم ـ ما تمنى ، وكانت في فتحه وفتح قَطِنْيانَة قبله آيات بينات جلت لِمُبْصِرِها كُبَرَ العِبر ، وشهدت بما لله من اعتناء عظيم بالمقام اليوسفي لا يُستوفى التعبير عنه بالخبَر ، فانه سبحانه ارسل عليهم ناراً اذهلهم سعيرها المرسل عليهم ، عن الاشتغال بالقتال الصَّادٌ عن التوصل قبلُ اليهم ، فكان ذلكم سبب تقريب فتح الحِصْنين ، وتسوغ المنة التي وفتْ لكل مسلم بابتهاج النفس وقرَّة العين ، وعند اجتيازه على مدينة مَوْرور (138) دخل رَبْضها بالسيف ، واستولى على ما ضمه وتضمنه بحكم العدل لا الحيف ، وترك الخوف نائباً عنه في قتل من حل بذلكم الخيف . وانفذ ـ شكر الله تعالى بنصر دينه اعتناءه ، وجازى بأفضل الجزاء انتهاضه في تدويخ ارض الشرك وغناءه ، ولا نسي له هذا المقام الذي شفى صدور المؤمنين واذهب غيظ قلوبهم (139) ، واراهم في إذلال ـ عبدة الصليب غاية محبوبهم ـ كتابه الكريم بهذه البُشرى التي يهتز لها الحرمان طرباً ، ولا يبغي من حاز الأرب منها أربا ، مُقتصراً على جمل ما تضمنته من الخيرات الجزيلة التي تفوت مدى التفصيل ،

---

135) Lora del Rio

136) Constantina

137) فريق من رجال الكنيسة المحاربين

138) Moron de la Frontera

139) اشارة الى الآية 15 من سورة التوبة .

ومحيلا على احد صلحاء اوليائه المباركين في تفسير مجمل القول في الكثير منها والقليل ، فأحب مُعظِّمكم ان يورد عليكم حقيقة هذا الفتــــح العظيـــــم الجسيم ، والصنع الكريم الوسيم ، كما اورده ، ويسرُدَه لاستعذاب الاسماع غرائب المكيَّفات فيه كما سرده ، وما من هذه المشاهد المجلوبة اخبارهـــا المَسُوقة ، والمواطن المنظومة اوصافها نظم اللآلي المَشُوقة ، والمسرات التي تتَشَوَّفُ الأسماعُ لها على قدر غلل النفوس الظامئة لها المشوقة ، الا ما حضره ابنكم المبارك فأصبح بيُمن حضوره فيه مباهياً ، وفي شكره لجميل بلائه وحميد غنائه متناهياً ، وسيرِدُ – بحول الله تعالى – عليكم ، فتُربـــي مشافهته على ما تضمنه منفذ هذا الخطاب اليكم ، وانتم احق من تلقى بشكر الله تعالى هذه النعمة التي اسداها ، والمنة التي اظهر فيها عنايته باظهار دينـــه وابداها ، والصنيعة الفائتة جلالا مداها . واستوهب الدعاء الصالح للمقـام الكريم مدداً ، ومنحه الثناء الذي لا يزال له – كما يحق على كل مسلم – مردداً ، وصيَّر خبر هذه الصنائع أسيَرَ من الريح في الآفاق ، وبثَّها حتى تغدو سمر النوادي وزاد الرفاق . والله تعالى لا يعدمكم إثرها ما هو اسنى واغـــرب في التكيُّف والاتقان ، وهو سبحانه يديم سعدَكم ، ويحرس مجدكم ، ويضاعف البشائر عندكم . والسلام .

الرسالة الثانية :

من ابـــي حـــاتـــم العزفـــي

الـــى

ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني

كتبت سنة 682/1283

وكتبت عن سلالتها الحاتمية (140) الوارثة محلها ، الحائزة من خلال السيادة والزهادة أجلّها ، للامارة المرينية اليوسفية التي أهان الله بها ملة الكفر واذلها .

المقام الكريم السامي الشريف ، الاماري اليوسفي المبارك المنيف ، الذي اعز الله تعالى نصره لما اعز نصر الاسلام ، حين اخلد ملوكه لأرض الخذل له والاسلام ، واعجز ما سنّاه سبحانه لجلاله من الصنائع الجسيمة الوسيمة ، حين اطّلع في الامتعاض لدينه على نيته الصادقة الكريمة ، حصّر ألسنة الأنام ، وسطر أسنّة الأقلام ، وابرز — عز وجل — ما ابرز من اسرار عناياته ، المعدودة في كُبر آياته ، فيما اتاح له من الفتوح ، المشاهد من عظيمها الملموح ، ما لم يكن يصدق المخبر به عن رُؤَى الاحلام ، بشهادة اولي الاحلام ، مقام الامير الاجل ذخر الايمان لاعدمه ذخرا ، وفخر الزمان دام له فخرا ، المزدري بمتقدمات العصور عصره اسعد به وايمن عصرا ، لما تسنّى فيه للايمان في عبدة الأوثان ، من الصنائع المعجزة من تعاطى لها حصراً ، أبي يوسف ابن الأمير الأجل ابي محمد عبد الحق حرس الله تعالى وجوده ، الذي تلافى الاسلام وقد اشفى موجوده ، على العدم ، وهنأه وهنأ الاسلام وأهله عظيم ما حق له من الفتوح التي تزيد جدّةً ما ابقت له من المفاخر على القدم ، وتولى امداده بجنود سمائه ، على ما تجدد له من إعلاء الايمان وإسمائه ، بهمّةٍ ارى سموُها سفولَ ما خالفها من الهمم ، وانفةٍ من الاخلاد لراحةٍ والدين واهله يشكون من عُداتهم أبرح الغُمم ، وشكر تَهَمّمَه بما اهدى عائداً بعد بـاد ، من البشرى التي تعاطى الهناءَ بها حاضرُ وباد ، بما منحه الله تعالى من الظهور الذي أربَتْ النعمة فيه على جليلات النعم ، وقلَّ للمبشّر به بذلُ الكرائم من النفوس لا من الخيل والنَّعم .

---

140) هو ابو حاتم العزفي الذي تولى امارة سبتة سنة 1279/677 بعد وفاة ابيه ولم تطل مدته اذ تنازل عنها لأخيه ابي طالب سنة 1280/678 ، انظر الناصري : الاستقصا 3 : 114

مُعَظَّمُ سلطانه الذي اعظم الله تعالى به المِنّة على مؤمني العباد ، وشيعةُ دعوته الكريمة الممزوجةِ محبّتها منهم باللحم والدم ، المتغلغلةُ في القلوب والاكباد ، المُظَاهِرُ له على ما انتدب اليه من الغزو الذي ارضى الله سبحانه باقامة فرضه والجهاد ، بامداد الدعوات ، المثابِرِ على الجد فيها في اعقاب الصلوات ، واوقات الخلوات ، والاجتهاد ، المحافظُ على الاعتمال في كل ما يرضي جلاله الذي هو بعد الله سبحانه كعبة الاعتداد والاعتماد ، المبتهج بما تسنى لملة الايمان المُعْداة ببيض صوارمه وسمْرِ رِماحه على الشرك المدالة ، من النصر الذي غادر اشياع الكفر والضلالة ، بين مُقرَّنين في الأصفاد ، ومُصرَّعين على الجدالة ، عزيزه الممتدّ الآماد ، الداعي لأعلامه المعقودة لحل معاقد الكفر وافتتاح معاقله حيثما توجهتْ ، باتجاه الصنائع التي ما لغيرها اتجهت ، ومصاحبة العَضُد ، المهلّة سحائبه بالسعد ، المتهللة بالاسعاد ، فلان (141) .

اما بعد حمد الله الذي انجز للملة الحنيفية بما اشرعتم قِبَل عِداها وسللتم عليهم من رماحكم السُمْر الخطّية ، وسيوفكم البيض المشرفية ، مواعد نصره ، ووفر حظّ مقامكم الأسمى من منّه الممنوح ، بما ذخر من جليلات الفتوح ، لسعيد عصره .

والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم المصطفى ورسوله المؤيَّد من سواطع المعجزات ، وقواطع الدلالات ، بما أبان على كل ذي قدر من كرام رُسُلَ ربه مزية قدره ، المقاتلة تحت رايته ملائكة السماء في حُنينه وبَدره ، وعلى آله الكرام ، وصحبه الأعلام ، الذين عزروه ونصروه ، وبذلوا في مواساته النفوس فضلا عن كل منْفسٍ ذخروه ، فكان كل منهم يلقَى دونه السيوف بوجهه وبنحره ، ويقتحم في تنفّس الشدائد عنه كل هول يجيش بالمنايا زاخرُ بَحْره .

---

141) ابو حاتم العزفي

والدعاء لمقامكم الكريم القائم للايمان في آخر دهره ، من قَسْر عدوّه وقهره ، بما بلّغه مُنيمَ ثأره ، وسوّغه الجذل بما اعثرتم من جد الكفر ولا لعاً لعثاره ، بتسني كل صُنع تتأرّج الأرجاء بطيب أرَجِه ونشره ، وتأتّي كل فتح يخرج الكفر من داره لأول حشره .

فكُتِبَ كَتَبَ الله لجلالكم عَضُداً تسري امام كتائبكم كتائبه ، فتخلع قلوب الأعداء ، وسعداً يُكيِّفُ له من جليلات الصنائع ما لم يُكيَّفْ نظيره لمن تقدّمكم من السعداء ، من سبتة — حرسها الله — وقد اورد اهلها موارد السّرور والاستئناس ما اوردتم عليهم من البُشَرِ بما خوّلكم الله تعالى من جليلات الصنائع المتنوعة الأجناس ، ومنحكم من الظهور الذي هو لاعدائِه الكفرة مُرْهِق ، بل لأرواحهم قبل حلول آجالهم مُزْهِق ، فما يُرى إلا مُتَهادٍ للهناء ، ولا يسمع إلا ذو تنادٍ متناهٍ في ما يجب لكم من صالح الدّعاء ، وجميل الثناء ، والحمد لله الذي اعاد بنصركم للدين وجوهَ أهله بعد وجومها ضاحكةً مستبشرة ، وارغم بساطكم أُنوفَ طغاة الكفرة التي كانت بخلو الجو لها بَطِرةً أشِرة ، ومقامكم الذي عظمت على المسلمين به نعمةُ الله سبحانه ومِنَّتُه ، وعجزت عن القيام بحقوقه قدرة كل ذي اقتدارٍ ومُنَّتُه ، معترفٌ بكبار حقوقه الواجب — بمعروفها الذي لا يُجهلُ مثله — الاعتراف ، مستقام في إكباره واعظامه مثلى الطرائق التي لا يسوغ لمؤمن عنها الانحراف ، مُشادٌ بمآثره ومفاخره التي عظمت وجلت فما ينسب للمُفرط المغيِي في وصفها علوٌ ولا اسراف ، مستسعدٌ بمدته المسنّى فيها من انتصاف التوحيد من التثليث ما لم تبلغ ادناه طوامح الآمال التي كانت له ذوات استشراف ، مبتهل الى الله تعالى في حراسة وجوده المتلافي دينه بتلكم الجزيرة بعد ان كان على الفَوتِ ذا إشراف ، ومن أحق باعظامٍ يستغرق فيه الدهر غدوه والرواح وصباحه والمساء ، وصالح دعاء يصله لكم وجميل ثناءٍ يواليه عليكم في محافلهم الرجال وفي خدورهنّ النساء ، من مقامكم الكريم الذي وافى ومصالح الاسلام معطلة ، وواجبات النصر لدين الله تعالى والجهاد لمستأسدي عُداتِه مُبطَلَة ، وهمم الرعاة على الاخلاد للراحة ، وعدم الامتعاض لحرمات الدين المستباحة ، مقتصرة ، ونفوس عباد

الله المؤمنين تذوب غماً لما هي له من شكايات الايمان ، بنكايات عبدة الأوثان، سامعة ً ومبصرة ، فانبعث ــ شكر الله انبعاثه ــ كما اقتضته له السعادة السابقة لا برحته السُعود ، وارتضتْه همته التي همتُها السمو لاحراز رضاء الله والصعود ، لتجديد رسم الجهاد الداثر العافي ، وتدارك رمق الاسلام الخافت الخافي ، والطيران لادراك ما كان له في ذلكم من الأوطار بماضيات العزائم ، التي لها الفضل على منهضات القوادم ، والخوافي ، وبادر والله تعالى لا غيره وليُ جزاء بداره ، لغزو الكفر في عقر داره ، متعوضاً من التنعتم بما يشاء حسبما اقتضته له بسطة الملك والالتذاذ ، تجشتمَ مشاق الاسراع في السير لنصر الاسلام المسلم والاغذاذ ، مستخفاً لعينه التي ما يريها الله تعالى في الآجلة من القوة اكثر مما في العاجلة ارى ، مستَثْقَلَ سهرها كي يعيد على اجفان المؤمنين الأرقة مشرَّدَ الكرى ، بارزاً من مشيدات القصور ، ذوات الارائك والستور ، غير مبال بنفح الزمهرير ، الذي تَذْوى به الاطراف ولفح الحَرُور ، الذي تَشْوى به الوجوه ، لعظيم ما يأمله في ذلكم من ثواب ربه المُضاعف اضعافاً كثيرة قرض من احسن قرضه (142) ويرجوه ، متسوغاً في يومه كدر المناهل ليروي في غده من التسنيم ، مؤثراً ركوب المصاعب المشيدة مآثره ليأخذ لدين الله بالثأر المنيم ، فهنيئا له ما احرزه بذلكم من شرف ما مثله شرف ، وفخر لا يبلغ من وصفه ولو تمالأ على إملائه البلغاء طرف ، وثناء" لا تَمَلُ الاسماع سماع مُعاده ، واسمى من ذلكم واسنى ما أعدَّ الله تعالى له من ثوابه الحفيل ذخراً لمَعاده ، ولما علم سبحانه إخلاصه في ذلك النية لوجهه الكريم اجناه من ثمر النصر ما اجناه ، ويسر على صعوبته مرامه وسهَّله وقرب على بعده مراده وادناه ، وأناله من غريب المنح ، وعجيب الفتح ، ما لم ير راءٍ ولا وعى واعٍ في مسطورات الأخبار ، ومأثورات الآثار ، مثل ما رأت منه عيناه وسمعت اذناه ، فأنجده تعالى باعانته وامده ، ومنحه من عزيز نصره ما فلَّ به ناب الكُفْر وحده ، وارغم بسطاه القاهرة انف كل طاغ من عتاته وعفر خده ، وهَدم بصدماته التي لا تصدُ ركن الشرك الذي كان عند ذويه انه لا يُهَدَّمَ وهدَّه ،

142) اشارة الى الآية 17 من سورة التغابن .

فقد صيرت طغاة الكفر اذل من موطوء الحضيض وطآته الثقيلة ، واساحت مسفوك دمائهم انهاراً في ساحاتهم ، لكنها ما بردت بل اوفدت غُلل ترحاتهم ، صوارمه الصَّقيلة ، وهامت ذكورها بافناء ذُكْرانهم فحصدتهم حصد النبات ، ولم تبق منهم الا على من ساوى النساء ممن لم يبلغ حد الانبات ، وكانوا يزعمون إذ يُجرون خيْلهم بالخلاء ، ويَجُرُّون إذ لا مُنَهْنِهَ لهم اذيال الخيلاء ، انهم اولوا الوقوف والثبات ، وذووا الحملات والوثبات ، فعادوا حَجَلاً ، وفادوا وجلاً ، إذ عاينوا من بني مرين ومن انضاف لهم من اصناف القبائل والعربان ، أُسوداً تنقض بهم الخيلُ انقضاض العقبان ، فحكوا سرعة فرار شوارد النعام ، وعدم دفاعٍ للخسف ، وامتناع من الحتف ، مُخَيَّسَة الأنعام ، فما منهم من اثبت ي موقف حرب قدَماً ، ولا مَن أثرَ عنه انه آثر في ميدان طعن وضرب ، على متأخِّرٍ عنه متقدَّمًا ، بل القى كلٌّ منهم قسْراً للاستسلام يده ، وكيف يقاوم عدوٌّ لله خذله وليٌّ له ايده ، فكم بات منهم تحت الخضراء صريعٌ على ظهر الغبراء ، مُلْتحفاً من دمه المتجسِّد على جسده ، بكالحُلَّة الحمراء ، تركتهم جزراً لصفوف الطير والسباع ، من كواسر العقبان وعواسل الذئاب وخوامع الضباع ، سيوف جندكم المجاهدين الذين جاسوا من ديارهم خلالها (143) ، واثكلوها سكانها من الكفرة وحُلالها ، واكتسحوا نَعمها ، وانتسقوا نِعمها ، وحازوا من امتعتهم الفاخرة ومصونات اعلاقهم التي عَنِيَ مُتَقَدميهم اقتناؤها للأعقاب المُسْتأخِرةَ ، ما يفوت مدى الحساب ، ويأمنُ مطيلُ القول المُطنب في وصفه من الاعتزاء لغير القصد والانتساب ، كصنع الله تعالى لجلالكم في حركته (144) تلكم المباركة لأول دخولكم ارض الكفرة اعداء الهدى وفتحه العظيم عليكم في جهات قرطبة وجَيّان (145) وأبَّدةَ وما معها من الحصون ، وما أفاءه سبحانه عليكم من الخيرات بالاستيلاء على جميع ما كان لكفرتها من المذال المهان والعزيز

---

143) اشارة الى الآية 5 من سورة الاسراء .

144) جواز ابي يوسف المريني الى الاندلس بقصد الجهاد في شهر ربيع الثاني 682/جوان 1283

145) Jaen

المصون ، والتدويخ لأرجائها التي لم يطرقها قبلكم خطْب من الخُطوب ، ولا دروا حتى ساء صباحهم بتصبيحكم إياهم لتطلق وجوه الايام لهم ما معنى القطوب ، وانما كانوا من تلكم البلاد في جنات تقصر الاوصاف عما أوتيت من الغضارة ، وخُصَّت به من صفات الحسن المقيدة للأعين النظارة ، واجتمع لأهلها من عِظَم الفوائد بنمو المزارع وفشوٌ المواشي ، المُغِصَّة للأوساط من تلكم الأرضين على سعتها والحواشي ، فنفَّلكم الله مَنّاً منه وفضلا ما جمعوه من ذلكم على القِدم ، ولم يبق لباقيهم الذي ودَّ انه في الأموات منها غيرُ الحسرات المؤججة ضرامها ما ترسل عينه حزناً لما حزبه من سحائب الدمع بل الدم ، حسبما تضمن شرح ذلكم وتفسيره ، كتاب الفتح بل الفتوح المستوفي كريمه كثير ذلكم ويسيره ، وسرده ايضاً الآن وبالله ما سَرد ، كتابكم المبارك المعظم الذي وردوه اعذبُ موارد السرور اورد ، المتضمن الاعلام بما اقتضاه نظركم الذي هو لكل خير مقتضٍ ، وسديد رأيكم الذي ما أعملتموه إلا في ما الله سبحانه له مرتضٍ ، لمّا تفرغتم من شأن تلكم البلاد ، وتسوَّغتم النعمة سنية في حوز ما كان للكفرة بها من الطارف والتلاد ، من قصد غيرها من الجهات التي لم يكدَّر لها شِرْب" ، ولا ريع بها سرب" ، ولا توهم اهلها لبعد المسافات ، وما يتوقعه المحدثُ نفسه بروْمِها من ضروب المخافات ، ان يصبحهم بحادثة يوم ، او يكون لكارثة عليهم حوم ، او يُطار لخيرهم غراب ، او يوطأ لأرضهم بأقدام غيرهم تراب ، كأنهم أعطوا عهداً بالأمان ، من حوادث الزمان ، لطول مسالمة العوادي ، ومصاحبة العافية للحواضر من أقطارهم والبوادي ، فقدَّمْتم الاستخارة الضامنة لمقدِّمها نُجْح الأعمال . ونيل الآمال ، في قصد مكان ترفعون شعار الاسلام من جهته بحيث بَعُد العهد برفعه فيه واعلائه ، وتنشرون علمكم المنصور بمكان يطوي نشره به ممتد زَهْوِ الكفر وخيلائه ، ويريه كذب أحاديثه التي حدثها نفسه في خلائه ، لتجدوا ذلكم عند الله تعالى في سنيَّات الذخائر التي لكم أعدها ، وتؤدوا به بعض حق نِعمه التي لا تبلغ الألسنةُ حدها ولا عدَّها ، فنهضتم بمن انتقيتم من عسكركم المنصور ، في ساعة سعدٍ لا غرو ان تَبَلَّج عن مثلها عصركم الذي بمثلها ـ وكم له من مثلها ـ غداً أيمن العصور ، قاصدين جهة

مُنْتيل (146) والمدينة (147) وهما متوسطتان بين طليطلة والكَـرَس (148) وفيهما فارية (149) النصارى التي يبتدرونها من شواسع الآفاق ، ويجلبـــون ضروب غرائب الأمتعة فالطرق اليها غاصة" بالرفاق ، وهي ايضا لأخذ رأيهم مجتمع ، وعندها يظهر من قوّتـهم وثروتهم ما فيه لمشاهده مستمتع ، ما مثله مُستمتع ، فسرتم اليها وتوفيق الله تعالى لكم حادٍ ، ونور الصدق الـــذي أُشْرِبَه' فؤادكم في تلكم المجاهل التي حجزت بينها وبين رائيها هادٍ ، ونصر الله سبحانه منكم بمرصاد ، فقطعتم ــ محتسبين عند الله تعالـــى ــ تجشُّمَ مشاقها مُعتاص تلكم الأوعار ، وصبرتم على تسنُّم تلكم الشواهق ومن طلب جلالة الأخطار ، لم يبال بما ارتكب من الأخطار ، وجزتم البُرْت (150) الذي يعجز جوازه تصورَ الأفكار ، وطرقتم الكفرة الذين ظنـــوا انهم ــ لكونهـــم وراءه ــ من الخُطُوب بمعزل ، وكانوا لا يشكون ان منازل النجوم مَنْعة دون ما كانوا فيه من منزل ، يوم مُجْتَمعهم في سوقهم المشهودة ، بما جلبوه من النفائس المعهودة وغير المعهودة ، فساؤوا صباحاً ، وعاد منيع حماهـــــم مُستباحاً ، وشاهدتم من مرْأى تلكم الجهات عند اشرافكم عليها ، مبصرات تميل الألباب' اليها ، ويطول التعجُّب' من محاسنَ تجمعت لديها ، اربت جلالةً على كل ما قبلها لُمَح ، واستصغر ــ على عِظمه ما به من متاع الدنيا لأهل البلاد المُبادة اولا سُمح ، فسرَّحت خيل الله في نواحيها تحرق' وتَهْـدم ، وتُفنِي بحدود الصوارم رجالها وتعدم ، وتحوز من الغنائم والأسلاب ما كان ، بالاضافة لها نقطةً من بحرٍ محوز' تلكم الأنفال الجليلة المتقدم ، وسبوا بعد قتل الرجال بواقي نسائهم اللائي حماهُنَّ من ظبا الشِّفار نهود الثّدي ولَمَا الشِّفاه ، والصبيان الذين لا فرق بينهم وبينهن لفرط الاشتباه ، حتى كان الفارس يسوق خمساً وستاً وعشراً بأولادهن ويقدم ، واما الدواب من الرماك والبغال

Montiel (146

Almaden (147

148) لم نجد اسمها الحالي

149) السوق الدوريه وما زالت تسمى كذلك باللغة الاسبانية

EL PUERTO (150

فحكى اقاطيع الوحوش ما منها مُلِك ، وضاق بضروب البقر والغنم مُتَّسع
الفضاء الذي بها سُلِك ، ولم يُدرَك بالحساب غير ذلكم من المتاع والأسلاب
التي عجز عن سوق كثير من نفائسها فتُرِك .

وإن هذه أيدكم الله واعلى يدكم لَعوارفُ نظيرها لا يُعرف ، ولطائف
ما قدِّر ان مثلها في هذا الوقت يُتكيَّف ، وصنائع بُشرُها اسنى ما به بقاع
الاسلام في مشارق الارض ومغاربها تتحف ، وفتوح فتحت ابواب السمـاء لها
حيز لكم بها الفَخْر الأتم والشرف ، ومنح لا تعمل في احق من اذاعتها الأقلام
ولا تصرف ، احظاكم بها الربُّ الذي خرجتم جهاداً في سبيلـه وابتغـاء
مرضاته (151) ، وامتعاضاً للاسلام الذي بالغ الكفرُ في ضيره واذاتـه ،
ومسارعة الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها ارضه مجموعة الى سماوته (152) ،
فأيقنوا بادامته نصر اعلام جلالكم وراياته ، وامتداد مدى ظفركم الذي قصرت
نهاياتُ كل ظفر عن بداياته .

وما كان لكم بحصن بِنَج (153) وشنت اشْتِيبِن (154) وسواهما من
الأماكن المنسوبة للكفر المعزُوَّة ، وطوائف الكفر المجاهدة بمنصور جيوشكم
المغْزُوَّة ، من عظام الآثار ، التي آذنت شمل الكفر بالانتثار ، وتكفلـت
مأثوراتها بخلع ارواح من بلغته من الكفار ، في نازحات الأقطار ، مواهـب
بعضُها ببعض مُرْتَدف ، ونعم يَعْيى بوصفها خطيب لِدُرّ الكلام ناثـر
وشاعر لنثره منظّمٌ مرصّف ، وقلائد فخرٍ بجيد علاكم منسوقة ، وعصائب
شرفٍ بجبينها معصوبة ، وحسناتٌ في صفحائف حسناتكم الجمة مكتوبة ،
ومِننٌ على ولياء الله المجاهدين بازاء ما احرزوه من خيراتٍ احرازها لغيرهم
ما اتفق ، ما كابدوه من جهد وعطش نفق بهما من دوابٍ بعضهم ما نفق ، وما
ضر ذلكم التلف ، وقد عُجِّل لهم وأسْنِيَ الخلف ، وايقاعكم بمن اغتـر من

151) اشارة الى الآية 1 من سورة الممتحنة

152) اشارة الى الآية 133 من سورة آل عمران ، والآية 21 من سورة الحديد

153) لم نتمكن من معرفة الاسم الجديد لهذا الحصن

154) Santisteban

اهل بياسة (155) وأُبَّدَه (156) ، بكاذبات مُنى النفوس ، فبرز لختل محلَّتِكم المحوطة وانما خرج لتذيقه سيوفكم من المنايا أمرَّ الكؤوس ، ممكِّن" عند الكفرة عدم إفلاتهم من مخالب اسِنَّةِ رماحكم ، واجنحة شفار صفاحكم ، ومما زاد هذه النعم كمالا ، وصُنْع الله تعالى فيها جمالا ، سراح من كان من اسارى المسلمين في ربق الأسر ، وجبرُ قلوبهم وقد كانت في نهاية الكسر ، بمشاهدتهم مُلاكَهُم في الحال التي كانوا بها من الذل والقسر ، وانتظامهم مع اخوانهم من المسلمين الذين اضحوا أيديهم وأيدهم مفتكين ، فرحين ضاحكين ، مما حل بالكفرة من حالات الهُون ، التي كانوا المُدد الطويلة باكين من معاناتها متشكين ، فيا لقُربتكم بما فرَّجْتم عنهم من الكرب ، ما اكبر مزيَّتها على عظام القُرَب .

فهُنِّيتُم الحسنات التي حُزْتُموها من كل طريق ، والصَّالحات التي أسديتموها لكل فريق ، والفتوح التي لا يبْرِدُ ما على اكباد الكفرة بها ويابردَ ذلكم على اكباد المؤمنين من حريق ، وقد اشاع مُعظّمُكم هذه المسارَّ التي استلذتها الاسماع ، وانعقد على جلالها الاجماع ، وبذل في شكر الله تعالى عليها ـ استجزالا لاحسانه ـ أقصى ما عليه يُستطاع ، فأحاديثها الآن ما يُتعاطى غيرها في المحافل والنوادي ، بالحواضر والبوادي ، وعقَّب شكر الله بشكر مقامكم العلي الذي شرُّف بعظيم ما منها اهدى ، وابدى من سر معتقده الكريم ما ابدى ، وبالغ في تشهير السرور الذي احد منه بما يفوت عبارة الأقلام بقرع الطبول ونشر الاعلام .

والله تعالى يواليها لجلالكم فتوحاً خارقة للاعتياد ، وصنائع زادت ايامُ تكيفها وتعرفها بهجة على الأعياد ، ومنحاً جازت طامح الارادة والارتياد ، ويوزعُ من شكرها ما يكون ضامناً للنماء منها والازدياد ، بمنه ، والسلام .

(155 Baeza

(156 Ubeda

الرسالة الثالثة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني

كتبت سنة 1277/676

وكتبتُ عنها(157) أيضا ــ وصل سُعودها وحرس وجودها ــ لمن ذكر جواباً عن كتاب فتح (158) قلّ لجليله ما فيه حُبِّر .

المقامُ الكريم الذي أعزّ الله تعالى به ملة التوحيد وأعلاها ، وأذلّ بعد تخمّطها وصيالها فئة الصليب بمتابع غزواته التي أبارت جماعاتهم ، وادنت قبل الممات مماتهم ، ومُوالاها ، وابدى سبحانه من عناياته بنصر كتائبه وتظفير راياته ، اجلّها دلالة على أنه جالب حينْها ، ومذهب اثرها وعينها ، واجلاها ، وسنّى له من الفتوح الكبار ، والصنائع التي فيها اعظم عبرة لذي الاعتبار ، ما يَبرُ المُقْسِمُ ألا نظير لها بالشمس وضحاها ، والقمر اذ تلاها (159) ، ويقول السامع لتالي اخبارها المستعذبة ، وآثارها المستغربة ، اعد على سمعي احاديث المنى يا مَن تلاها ، مقامُ الامير الأعلى ذخرِ الايمان، وفخر الزمان ، المنتظمة مآثره الباهرة ، ومفاخره الزاخرة ، بِلَبّات ايامه انتظام الدّراري لا الدُرر فضلا عن الجُمَان ، المستنجزَة متظافراتُ ماله من الصّعاد والسُعود ، ما تقدّم من صادقات الوعود ، بالكرّة التي لو كان بِمُستَنّاها له وارد البُشرى ، مما يُشرَى ، لكانت النفوس اقل مبذول لها من اثمان ، ابي يوسف ابن الامير المرحوم ابي محمد عبد الحق ، وصل الله تعالى له عوائد النصر التي حباه منها اعظم الحِبَاء ، وهنأه ما لزمنه الجديد السعيد ذُخْرَه من الفتوح التي توزعت اهل الكفرِ بين القتل والسِّباء، وشكر اعتناءه بما اهدى من البُشرى بمُكيَّف الصنع الذي اربى شرحاً للصدور ، وتمكيناً للسرور ، على الأرب كل الارباء ، ومعرّفِ الفتح الذي القى له طغاة الشرك وعُتاته ايدي الذل والدلّ بعد الأنفة والاباء .

معظمُ سلطانه السَّنِيّ ولا سلطانَ بتعظيمٍ منه احق ، وشيعةُ دعوته العلية التي ذخرها الله ليزهق بها في هذا الزمن الباطل ويحق

---

157) الامارة العزفية في عهد ابي القاسم .

158) لم نعثر على نص الرسالة التي وجهها ابو يوسف المريني لأبي القاسم العزفي .

159) القرآن ، الشمس ، 1 ــ 2 .

الحق (160) ، المُستَسعِدُ بمدته المباركة السعيدة المُتاحِ فيها لأنـــوار الايمان النمو والسمو ولِظُلم الاشراك المحوُ والمَحق ، المستطارُ سروراً بما تأتّى في الكفر بجدِّه الصاعد ، وسعده المساعِفِ له القَدرُ المُساعد ، من الصنع الذي تساوى في تهادي مشرقه ، مُغِص الكفر بريقه ومُشرقه ، الغرب والشرق ، الداعي له من النصر الفسيح المدى ، في قهر العدى ، بما يَحسَرُ عن بلوغ غايته البرق ، محمد بن احمد العزفي .

اما بعد حمد الله الذي يسر لدينه الحنيفي بعزائمكم الماضيـــــــة ، وصوارمكم القاضية ، من الفتوح التي لم يعلم لها نظير في المُـدد الخالية ، اظهرها جلالة ، وابهرها على ما لله تعالى بدعوتكم الكريمة ، من عنايته العظيمة ، دِلالـــة .

والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ، ورسوله المُبتَعَث الـى كافة الأمم بشيراً ونذيراً (161) ، « وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً » (162) والمردي أبيّاً (163) حين أبى إلا الاصرار على الضلال – بطعنته التي تدأدأَ منها عقيراً ، واوردته جهنم وساءت مصيراً (164) ، فكان صلى الله عليه وسلم أعمَّ الأنبياء رسالة ، وأعظم الناس عند احمرار الحَدَق لاشتداد البأس نجـــدة وبسالة ، وعلى آله الكرام ، وصحبه الأعلام ، غيوث النَّدى ، وليُوث الرَّدى ، المُواسين له بالنفوس والنفائس في مآزق الحروب ، وطوارق الكروب ، حتى انقمع الكفر الذي كان لا يطاق استطالة ، فلا تبلغ الألسنةُ وصفَهم وان لم تأل إطابةً وإطالة .

ومُوالاة الدعـاء لمقامكم العلـي المستلذّ نَصَب الاجتهـاد ، في الجهاد ، الذي اضحى له غاية الاقتراح ، حين اخلد غيره للتلذُذ بالراحـــة

---

160) اشارة الى الآية 8 من سورة الانفال .

161) اشارة الى الآية 28 من سورة سبا .

162) القرآن : الاحزاب ، 46 .

163) هو أبي بن خلف بن وهب .

164) انظر الحادثة كاملة في سيرة ابن هشام 2 : 84 (ط . مصر 1955)

والراح ، بالنصر الذي يوسعُ عزيزَ حِمى الشرك ومصونه إذلالا وإذالة ، والفتح الذي يُحسبُ سَنيَّه من حزب الضلال حزب الهدى إقادة حتى لا يجد جدُّ الشرك من عثرته بها إقالة .

من سبتة — حرسها الله — وقد امتزجت ارجاؤها بما اهداه جلالكم من بشرى الفتح الذي صح في مُسنّى سنيّة رجاؤها ، وميسر الصنع الذي آذن فئة الصليب الطاغية بأخذة الله الرابية (165) المُعوزة منها نجاتُها ، ولو جدَّ بها في الفرار ولا فرار من امر الله نجاؤُها ، والحمد لله كفاءَ ما اولاه اولياءه المؤمنين حين علم سبحانه ان نفوسهم قد خَلَصَت في الافتقار له نياتها ، وصدق في استمداد نصره التجاؤها ، وعند شيعتكم الذي اسعدته بادراك مدتكم المجددة فيها دوارس معالم الايمان الأقدار ، وصفت مشارع موالاته لدعوتكم المصعدة المسعدة فما تُلِمُّ بها الاكدار ، وعرفت نفسه ما اوجب الله لكم من عظيم الحق ، على جميع الخلق ، فشأنه التسرُّع لتوفية ما انتهى اليه وسعه من لازمه له والبدار ، وارتدفت عليه عناياتكم الحفيلة ، وأياديكم الجليلة ، فآناؤه مستغرقةٌ في صالح دعاءٍ لكم وجميل ثناء عليكم يُوالى فيهما الايراد والاصدار ، من الاعظام والاكبار ، لمقامكم الذي خَصَّه الله تعالى بأسمى مكانة ، وذَخَرَه لهذا الزمان ، ليُديل عَبَدَةَ الصُّلبان ، من مُفْرط ما كانوا فيه من العتو والطغيان ، مالا مزيد عليه من ذِلَّة واستكانة ، ويسَّر لدينه على العلية يده من الظهور ما لم يعدمه أكرم إمدادٍ عليه بأنصار سمائه واجمل اعانة ، وخلد له بذلكم الفخر الذي لأسرار عنايته سبحانه به فيه اكمل وضوح واتمُّ استبانة ، وإنْ لم يسرْ صُحبة ركابكم السعيد فقلبه معه سائر ، وإن غاب عنكم جسدُه فهو لديكم بمحض الصفاءِ حاضر ، وان لم يظاهركم بسلاحه فانه بصالح الدعاء لكم مُظاهر ، وما يتجدَّد لجلالكم من صنائع الله الكرام جديد ، ولا يتبلَّجُ لكم عن غُرة فَتْح يبْهرُ النَّيِّرَيْنِ يوم سعيد ، ولا تنالون من عدو الاسلام الذي انتدبتم لجهاده ، وتجرَّدتم لوطْءِ بلاده ، واستفرغتم الوُسْع في غلبِهِ على طارفه وتلاده ،

---

165) اشارة الى الآية 10 سورة الحاقة .

نيلا يكتب الله لكم به صالح عمل ، ويوفي من أجر إحسانكم فيه « والله لا يضيع أجر المحسنين » (166) ما لا ينتهي له طامح أمل ، إلا أربَى مسرةً به وابتهاجاً على كلّ ذي مسرة من خُلّص اوليائكم وابتهاجٍ ، وسلك في الاشاعة لبشراه والاذاعة أوضح منهاج ، ووفّى بازائه من حمد الله وشكره ما مُوفّيه لعظمى المضاعفة ومستدام الالمام راج ، والله تعالى ينفع بذلكم ، وينهض بمُتَعَيِّنِه لجلالكم ، بمنه .

والى هذا والى الله تعالى لمقامكم الأعلى تتابُعَ الخيرات التي اولاه منها ما لا يتناوله تعديد ، ولا يأتي عليه تحديد ، ولا خُصَّ بمثله قريبٌ من الأزمان ولا بعيد ، فانّه وصل كتابكم المعظّم المبارك الأسنى ، الذي أقطف ثمر المسارّ وأجنى ، وأنال النفوس من قرّات العُيون ما كانت تقترح على الأيام وتتمنى ، واصفاً ما تيسر لجلالكم في تلكم الحركة (167) ، العظيمة البركة ، من جليلات الصنائع وتسنّى ، واولها اولاها بالاعلان بذكرها والاشادة ، لانها ضامنةُ الفوز في الدنيا والأخرى بأشمل السعادة ، والمقدمة التي نتيجتها الحصولُ على الحسنى الموعود بها من احسن والزيادة (168) ، وتعجُّلُ هذه الخبرات التي هي من اعظم نعم الله تعالى المستفادة ، صرفكم كريم النظر لتدارك ما في امور الاندلس عرَض ، من خلل ألزَم قلوب المؤمنين المرض ، وطوى نفوسهم على الاشفاق حذراً ان يُعذّر القصد الذي قصدتموه من جهاد عدو الله والغرض ، وإقبالكم على تلافي ذلكم بتأليف الكلمة التي تعرض لمَقْت الله مَنْ عَنْ لَحْظِ الواجب عليه من ذلكم اعرض ، فقد كان ما عرض فيها من الشتات ، واعترى اسبابها التي امر الله سبحانه بوصلها من البتات ، مما يودّ الكفرةُ الا ينطفئ لنائرته اشتعال ، ليكون للمسلمين بعضهم ببعضٍ عنهم اشتغال ، فأبى الله تعالى ، وما أشْرِبَ مِن لَحْظ مصالح

166) القران : التوبة ، 120 ، هود ، 115 ، يوسف ، 90 .

167) هي جواز ابي يوسف المريني سنة 682/1283 . الناصري : الاستقصا 3 : 45 — 46 .

168) من الآية 26 سورة يونس .

الاسلام جَنانُكم ، وحُنوُكم على الرعايا التي لم تجن ما يلزم عتْباً ، فضلا عن ما ينبي لها عن منامها ومضاجعها جفناً وجنباً ، وحنانكم ورغبتكم في الجهاد الذي لم يُثْنِ عنه ما خُولْتُم من زهرة الدنيا ونعيم الملك الملهيَيْن غيركم ممن غَراه عِنانكم ، إلا الرفق من اجلهم بمن جفاكم (169) ، وتوفية حق الله في الابقاء عليهم وعليه وان كان حقكم ما وفّاكم ، فأكذبتم توهمات الأعداء ، وأخلفتم ظنونهم إخلاف مثلكم من المُزْلَفين عند الله السعداء ، وأتيتم ما ارضى الرب سبحانه فسكّنْتم الدهْماء ، وحقنتم في أُهَبِها الدماء، وابديتم الاهتمام بلم شَعَثِ الاسلام والاعتناء (170) ، فاستوجبتم جزيلا من الله تعالى الثواب ، وجميلا من عباده الثناء . ثم إنكم بعد الفراغ من محاولة ذلكم المهم الأول الذي أنالكم الله سبحانه فيه قُصِيَّ آمالكم ، واتاح النُجح فيه لسعيدات اعمالكم ، عند اجتماعكم بنجْل جلالكم ، بَدْرِ سماء مُلككم الذي قصّرت من سنائه وسناه البدور ، ووليِّ عهدكم المُشربة محبته ومهابته الصدور ، وقطب دولتكم الذي عليه مهمّات مصالحها تدور ، الأمير الأجلّ أبي يعقوب حرس الله بَهاءه ، ولا أعْدمكُم مِن مسرة النفس بكماله وقُرة العين ما لا يبلغ الوصفُ أدناه فكيف انتهاءَه ، وبمن صحب من طوائف الاسلام الذين كنتم في انتظارهم رِكابَه ، المستخفين رغبةً في الجهاد تجشُّمَ كل شأنٍ وارتكابه ، ثَنيتُم نحو بلاد الكفرة الأعِنّة ، وأشرعتم لنحورهم الأسنة ، وسرتم بأخلص سريرة ، وأصدق بَصيرة ، لبيعكم من الله النفوس والأموال تلتمسون ثمنها الجنة ، فانهضتم من مَرْج بِياش حفيدكم الأمير الأجل أبا فلان مع من قدمتموه عليهم من عسكر المسلمين فسار يَقْدُمُهم أُسوداً تحملهم من الخيل عِقبان ، وقمراً تَحُفُّه منهم شُهبان ، حتى صبّح قرطبة صقع الأندلس الأعظم ، ومحل مُلك الكفرة الذي انتظم من المصانع العجيبة ، والمواضع الخصيبة ، ما انتظم ، فساءت صباحاً ، وأضحى مصون حِماها بسيوف اولياء الله المجاهدين مستباحاً ، وشن الغارة في أرجائها تقتلُ وتسبي وتنتهب ، وتلهب من نيران الأسى في قلوب من لم تنله المنايا من معتصميهم

169) اشارة الى مواقف ابن احمد .

170) اشارة الى الصلح بين ابي يوسف المريني وصاحب تلمسان .

بالأسوار ما تلهب ، إلى ان غادر نضرة تلك الجنَّات ونعيمها بؤساً ، وكساها باحراقها السواد فكأنها اتخذته كالمُحِد ٍ لمن فقدت من عامريها لبوسا (171)، وبعد ان أمعن في العَيْث فيها أتم إمعان ، وروى الأرض من دم كلٍ قتيل عكفَت عليه الطير وملأ الأصفاد من كل عانية وعان ، واستاق من مواشي الكفرة ما أذعنوا بحكم القهر لترك التعرُض للدفاع عنه اولا ورَوْم الاستنقاذ له آخراً أشدً إذعان ، آبَ ومن معه بكل ما ضَمَّه من الغنائم التي اضاقت رحب الفضاء ومُتَّسعَه ، وقد قرت أعين ذلكم العسكر السعيد ، بالاستيلاء من الفخر لغزوتهم الميمُونة على الأمد البعيد ، ونالوا عاجلاً من الفوائد الفاخرة ، والثواب المذخور لهم للآخرة ، أقصى إرادة المُريد ، وعلى أثر إنهاض هذا الحفيد ، الميمون أثره في غَزاته الحميدة ، أنهضتم أيضاً نجلكم الكبير سناً وسناء ، ووليً عهدكم الذي بزَ كبراء الأمراء اكتسابا للمفاخر واقتناء ، الأمير الأجل أبا يعقوب أبقاه الله لعصره جمالا ، وحرس ذاته التي بهرت كمالا ، في ثلاثة آلاف من منتقى الأبطال الأذمار ، وكُماة الفرسان المقتحمين غمار الموت متى كعً الأبطال عن خوض تلك الغمار ، فسار على بركة الله سبحانه متبلجاً في مقدم عسكره الذي ظللته بأجنحتها ثقةً بالشبع من جزر عُداته النسور ، ومُصحباً النصر الذي لم يُعدَمه أية سَلك لواؤه المنصور ، بدراً تتضاءل عن علائه ولأْلائه البدور ، وصدراً تسمو العيون منه لأوحدَ شُرِحت بولايته عهدكم الصدور ، وقد اكتنفوه شُهُباً لشياطين العِدى محرقة ، وضراغم ممتطين من جيادهم عِقبانا على العِدى بالرَدى محلّقة ، فأم من بيَّاسة وأُبَّدة وجيَّان ، وما منها إلاً ما حاز من الحُسْن والحصانة ما يفوت حَدَه ووصفه البيان ، بلاداً طالما التحفت السلامة من الخطوب والأمان ، بل جنات صَحِبت جمة فنون النَعم خَضِلة أفنان النَّعيم الأزمان ، فكأن طائفاً من ربك طاف عليها فأصبحت كالصريم (172) ، وغادر ما انتظم بها من معالم الكفر المُعْشي سناها الأبصار بالاحْراق خاشعة من الذل لابسة جلباب الليل البهيم ، واجرى من دماء كَفَرتِها ما روَى الثرى ، بعد ما ربى بشفاء بيض الشِّفار وزُرْق

---

171) اشارة الى حزن الخنساء على اخويها .

172) القرآن : القلم ، 20 .

الأسـنـّة الهـيم ، واحتوى من غنائمها وأسلابها على ما كاد غانموه وسالبوه يعجزون عن استياقه ، وآب جنود الله وقد برد كل منهم بوصال محبوبه الجهاد غليل اشتياقه ، وقد تركوا تلك النواحي وشعار الذل عليها يلـــوح ، وذوات خـُدور ِها على من فقدته نواديها وكنائسها من عظمائها وقسـّيسيها نوادب ُ عليها تنوح ، وبعد وصوله الى جلالكم قرير العين بالغنيمة العظيمة والاياب ، ثـَلـِج الصـَّدر بما نال ببعيد أثره وسعيده آجلا من كريم الثناء وعاجلا مـــن جسيم الثواب ، ظهر لكم ما ظهر من النهوض نحو قرطبة ــ عجل الله تعالـــى فتحها لجلالكم ــ وأن الرجاء بما ظهر لكم من الدلائل دلائله تقـوى في ذلكم ، بالسواد الأعظم من جموع الاسلام المنتظمة لديكم ، وطوائفه المباركة الملتفـّة عليكم ، إذ هي قاعدة الكفر المعروفة المزية على قواعد الأمصار ، ولم تزل دار مملكة الاسلام ومفزعاً اليه في متقدمات الأعصار ، وبها اليوم فخار ُ الكفرة لما اتصفت به ضخامة ً وفخامة ً من الصـّفات المتعذ ّرة الانحصار ، إذ قد أضعفها ما رميتموها به الآن بعد العام المـُتقد ّم (173) من الاجتياح المـُفقد منافعهـا ومرافقها المـُعدِم ، وإذا و ُلـِيَ ذلكم عليها وتوبع ، وصـُبَّ عليها ســـوط ُ العذاب (174) العام بعد العام وما ر ُفع ، اعطى يـَدَ الانقياد صعبـُها الممتنع ، وكان انتثار بلاد الكفرة بعدها ، فهي واسطة عـِقـْدِها ، سهلا لا يمتنع ، فتقدم منكم إليها ملك الاسلام الجليل الكبير ، وذخره الذي مآثره ومفاخره لا يستوفيها التعبير ، واخبار آثاره في قهر عبدة الصليب المطبقة ُ الآفاق ، مستمد ٌ طيبـَها العبير ، ليأتيَ على ما فات قاصديها أولا من نـِعـَمها ونـَعـَمها ، واماكنهـــا ومساكنها ، التدمير والتتبير ، فطرقها بطروقكم عليها الثـُبور ، وعـَمَّ بالحرب وكم حربوا من امم الاسلام قومـها البور ، وأ ُذيقوا من عذاب الهـُون ما عـمَّ بـــه المسلمين الجذل والحبور ، وابتدر جنود الله عـُبور الوادي الذي اعتصموا منه بسور ثان لسورهم فتيسـَّر لهم بمعونة الله العـُبور ، وصـَدَّق حزبـُهم المـُفلح

173) وهو الجواز الاول لابي يوسف المريني الواقع سنـــة 674/1275 — 1276 الناصري : الاستقصا 3 : 39 — 42 .

174) اشارة الى الآية 13 من سورة الفجر .

حزب الكفرة الخاسر (175) الحملة عليهم ، ووصلوا قصار السيوف بِمَدّ الخطيّ إليهم ، فصدموهم عند باب المدينة صدمة فرّشتهم هنالك صرعى للأذقان والجنوب ، ورَوّت من دمائهم ظمأ الجبوب ، وكَبَتَ الله مَردة الأعداء اشدَّ الكبْتِ ،وضرب بأيدي اهل العروبة على اهل الأحدِ ذلّة اهل السبت ، وانصرفتم عنها وقد غظتم كفرتها بوطئكم الثقيل ، وبلغتم من الاستيلاء على تلكم الأرجاءِ ما يُقصِّرُ عنه مُوالى القال والقيل ، ومع ما اقتحم المسلمون من صَعْبِ ذلكم المُقتحَم ، وكان لهم على تلك الموارد الجائشة بالحُتُوف من فرط المزدحم ، لم تنغَّصْ عليهم نعمة ذلكم الظفر بفقيدٍ منهم ولا قتيل ، ولا رُزِئوا على عِظم ما رَزّؤوا به الكفار بمقدار فتيل ، بل سوّغُوا النعمة هنية ، وبُلّغوا الأمنية سنية . وكذلكم صُنعُ الله تعالى مع من خلص في طاعته ضميراً وكَرمَ نية ، وما تركتم لهم من مرافقهم الجمة الأصناف ، وفواكههم المدمرة بتدمير جنّاتها الألفاف ، والأطعمة المائلة لتلكم المواسط والأطراف ، ما يُمتَسَك به رمَقُ ذلكم القُطْر الذي غادرتموه بابادتها رهن الانجعاف ، وتتبعتم بالتدمير هدماً وتحريقاً وقتلاً وإساراً ما نأى عنها من المواضع واقترب ، وألزمتم قلوب الكفرة في اقصى البقاع ، بهذه الآثار المأثورة لهم عن هذه الأصقاع ، الويْل والحرب ، وبعد مقامكم ثاني هذا اليوم الذي أشرقت بسعد الاسلام شمسه ، وقرت بشهوده عين كل مؤمن وابتهجت نفسه ، لاقتسام أولياء الله ما افاء الله عليهم من سبْيِ اعدائه الرجال والصبيان والنسوان ، وضروب المغانم الفائتة مدى الحسبان .

واحتلالكم بظاهر بُلْكونَة (176) ، منزلكم الذي تنزلت فيه على المسلمين السَّكينة ، وتبلجتْ لهم غُرر السعْد المُستبينة ، انهضتُم من نجلكم الأمير تِلْوِ اخيه وكبيره في السنا والسناء ، والمضاء والغناء ، أبي زيان ـ أسعده الله ـ نحو بيّاسة وأُبَّدَة تعقيباً عليها بالدّمار ، ثاني القمريْن محفوفاً مِن فرسانه بنجوم رُجوم تُشْرِق بالنور وتُحْرِقُ بالنار ، فسلك في

---

175) اشارة الى الآية 19 من سورة المجادلة .

176) Porcuna

جهاد عداة جهاتهما مسلك صنوه الأكبر الأسنى ، وانال الاسلام لعظيم نيله منهم قتلا وسبياً وتدميراً فوق ما تمنى ، وعاد وقد جاوز العقاب (177) ، ونصرُ الله قد حسر له عن مُتَلألِيء غُرته النّقاب ، وقضى من الأوطار ، في تدمير ما كان للكفر هنالكم من الأوطار ، ما أطالت له الأيام الارتقاب ، وعلى إثر نهوضه أغزَيتم خيول الله بيّاسة ومارتُش(178) وقنّيط(179) وبُلكونة وارجونة(180) وأنْدُوجَر (181) وسواها من بلاد الكفر ما دنا منها وما شسع عنها فجَرّوا عليها للرزايا ذُيُولا ، وأجْروا بها دماء كفرتها سيولا ، وغادروا كلّ قائم ألْفَوْه بها حصيدا وحريقا ، وفرقة الكفر بما أودعت قلوبهم من الفَرَق لا تسيغُ ريقا ، واعدتم ايضاً نحو قرطبة البائسة بعض الجيش المنصور المُعان ، مع الشيخ المكرم ابي فلان ، ابن اخيكم الأمير المعظم المرحوم ابي سعيد عثمان ، وليستَفَّ ما بقي لها من بُلالة ، ويُفْنِيَ ما اسئر بها من صُبابة ، فكانت كَرّتُه لها أنكاً لقرْحها ، واشدّ في تأجيج نار برْحها ، من الغزوة الأولى على ان تلكم لا تفي الألسنة بوصف جلالة الصنع فيها وشرحها، وعلى اثر ذلكم آب ابنكم الأمير المعظم أبو زيّان بمغانمه الفائتة عدد الحصى ، بعد إيقاعه بأهل أنْدوجَر المُباد فيه منهم مَن عدده لا يستقصى ، واستئصاله جماعة الافرايريين الذين كانوا بها إفاتة لنفوسهم ، واراحة للأرض باذهاب أرواحهم من بأسهم وبُؤسهم ، ثم في يوم إنفاذِكم خطاب هذه البُشرَ ، المبهجة كبارُها قلوب البَشَر ، رأيتم - واليُمْن برأيكم معصوب ، والتوفيقُ لما تُديرون منه وتُدَبّرون صَحوب - إعادة نجلكم الأكبر الأمير أبي يعقوب ، - اسعده الله - لقرطبة المنهوكة القوى وهي رابعةُ الصدمات التي رميتموها منها بما قَصَمَ الصَّليب ، وأنذرها بحلول يومها العصيب ، ليُجْهِزَ على ذَمائِها الخافت ، ويذفّف على جريحها الفائد عما قريب بمَنّ الله الفائت ،

Las Navas de Tolosa (177
Martos (178
Canete (179
Arjuna (180
Andujar (181

فعفَّى ما ألْفَى للكفر من باقي أثر لم ينله ، وألْفَى ما بقي للكفر من أغنــام كانت ادخلت تحت السور قد اخرجت فتمت بغنيمتها النِّعمة التي ما لها كفاء ، وخرج من مُدَجَّنِيها من عرَّف بشدة غلائها وهي العِلة التي ما لهـــا شفاء ، فرأيتم لما قَوِي في فتحها ـ قَرَّبَه الله ـ من اطماع ، واجتْلِي مِن غرر التيسيرات المتلألئة الشعاع ، إلزامكم نصف جيشكم المؤيـد المبارك حِصارها ونِزالها ، وقصْرَه على قسرها الى ان يجزل الله سبحانه بفتحها المنة التي لا يتولى غيره إجْزالها ، وانه لنظر" كريم يُزلــزل أرض الكفــر زلزالها ، وأثر" تَقْديمُه لا يُنْتِجُ الا إعادة كلمة الاسلام بمن في الطَّـوْل والانعام لمنابرها التي أزاحها الكفر عنها وأزالها .

وتعريفُكم مُعظَّمكم بهذه الصنائع الرائقة الجمال ، والفُتوح الفائقة الكَمال ، بقَدْرِهِ تنويه" ولجانبه تشريف ، وإحسان منكم وُصِلَ له بِتالِدٍ منه طريف ، وقد اخذ من مسرَّتِها أوفر الحظوظ واوفاها ، واولى بنعمة الله العظمى فيها احفل ضروب الشكر والحمد واحْفاها ، وكمل حقوقها من الاذاعة لها وقَرَعَ الطبول عليها ووفاها ، وضاعف إمدادكم بصالح الأدعية التي ما زال مُواليها لكم كما يلزم كل مؤمنٍ عن أخلص نية وأصفاها ، والله تعالــى يجريها لكم في النصر والظهور عادة لا تنخرم ، ويجعل في عَقِبكم كلمـــة الاعتزاز بدينه والاعزاز له باقية لا تنصرم ، ويهنيكم هذه المِنَح الجليلة التي ابتهج بسماعها المحزون وشبَّ الهَرِمِ ، ولا يُعْدِمِ منكم طالع بشرى يَجِـد المؤمنون من بردها على أكبادهم ما نَيْرانُ الأسى على أكباد عِداتِهم بهـــا تضْطَرِم ، بمنِّه ، والسلام .



الرسالة الرابعة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

المقام النبوي الشريف



وكتب لأسنى مكتوب اليه ، سيدنا محمد صلى الله وسلم عليه ، عن السيادة العزفية القاسمية جعل الله ذلك من احظى وسائلها لديه .

الى نبي الرحمة ، وشفيع الأمة ، وكاشف الكرب عنهم والغمة ، ومخرجهم الى النور من الظلمة (182) ، المبتعث بالهدى والحكمة ، والمؤيد بما بشر به من الكفاية (183) له والعصمة ، حبيب الرحمان وخليله (184) ، ورسوله المؤتمن على تبليغ رسالاته واداء تنزيله ، الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة الى سبيله (185) ، الذي وجبت وآدم بين الروح والجسد نبوته ، وبلغت ما زُوي له (186) من مشارق الأرض ومغاربها دعوته ، وظهرت بما شاهده في مسراه من آيات ربه الكبرى والرؤيا التي اراه كرامته لديه وحظوته واتت من كتب من تقدمه من الأنبياء اسماؤه وصفته (187) ، واخذ العهد بالايمان به والنصر لحزبه على مَن ادركته منهم بعثته ، الحريص على امته (188) ، المختبي لهم مستجاب دعوته ، حسبما اقتضته رأفته بهم ورحمته (189) ، المستمد من سنا محياه سواطع الأضواء ، والمسترفدة من ندى يمناه ، هوامع الأنواء ، والمعطَى لواء الحمد (190) وآدم فمن دونه تحت ذلك اللواء ، الذي اربى على خفر العذراء في خدرها خفرُه (191) ، وقَصَّر عن بسالته عند احتماء الوطيس ، ولف الخميس بالخميس ، ليثُ العرين وغضنفره ،

---

182) القرآن : الحديد ، 9 .

183) القرآن : الحجر ، 95 ، البقرة ، 137 .

184) ونسنك : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي 1 : 409 .

185) القرآن : النحل ، 125 .

186) ونسنك : 2 : 369 .

187) القرآن الكريم : النجم ، 53 .

188) القرآن : الصف ، 61

189) القرآن : التوبة ، 9 .

190) ونسنك 1 : 510 .

191) ونسنك 2 : 53 .

واكتنف روضة من رياض الجنة قبره ومنبره (192) ، المخصوص بالسبع المثاني (193) مزية عظم بها قدره ومفخره ، والمؤتى من جوامع الكلم (194) ما بَهَر ألباب أرباب الفصاحة تدبره . والمنصور بالرعب يسري شهرا امام عسكره (195) ، المؤيدِ عسكره ، المحلل له من الغنائم ما كان ربّه على من تقدم من انبيائه الاكارم يحظُرُه ويحجُرُه ، المتضاعفةِ بوضع مفاتيح خزائن الأرض (196) في يده أثَرُه . المروي من الرحيق (197) المختوم حوضه الذي آنيته كعدد النجوم وكوثره (198) ، المنتخب من اكرم العناصر واشرف المعاشر عنصره ومعشره ، الذي لم يزل متقلبا في السُّجَّد(199) ومتنقلا إلى الأمجد عن الأمجد نوراً تُجْتَلَى في وجوه آبائه الكرام غرره ، وسرًّا يتأدّى الى اطهر البطون عن اطيب الأصلاب ، ويحمل مصونه المحض اللباب عن المحض اللباب ، فلا تتشعب شعبتان الا كان في خيرهما عند الانشعاب ، الى ان استقر لدى امه الطاهرة آمنة كامِنه ، واطلعه الله تعالى منها بدر هدى عمت البلاد والعباد ميَامِنُه ، صاحب الذكر المرْفُوع ، والوزر الموضوع ، والصدر المشروح (200)، والامداد بالملائكة والروح (201) ، والدرجة المرفعة ، والشفاعة المشفعة ، والمقالة المرضية المستمعة ، مفزع الخلائق يوم الفزع الأكبر ، ومنقذهم من هَوْل الموقف عند اهتمامهم في المحشر ، اول من تنشق عنه الأرض اذا بعث الأموات (202)،

192) ونسنك 2 : 319 .

193) القرآن : الحجر ، 87 ، ونسنك 2 : 396 .

194) ونسنك 1 : 365 .

195) ونسنك 2 : 271 .

196) ونسنك 2 : 28 .

197) ونسنك 2 : 232 .

198) ونسنك 1 : 528 .

199) الشعراء ، 219 .

200) القرآن : الشرح ، 1 — 3 .

201) ونسنك 6 : 178 .

202) ونسنك 3 : 162 .

وامام الأنبياء وخطيبهم (203) اذا خشعت للرحمان الأصوات (204) ، المبعوث بالفرقان الباهر البيان ، والمعجزات التي منها تكلم' الجمادات (205) ، وانقلاب الاعيان ، من انشق له القمر آية باهرة ما استترت ولا احتجبت (206)، وحبست مرة بدعائه الشمس واعيدت به اخرى بعد ما وجبت ، واعلن الحصى في كفه بالتسبيح ، وشهد الضب بالحظ الاخيب لمكذبه ولمصدقه بالحظ الربيـــح ، وبرّح الجذع لما فقد من مكانه بحنينه اليه كل التبريح ، وسلمت عليه وسجدت اليه الأحجار ، ودعاها فاقبلت حتى مثلت لديه وشهدت برسالته بين يـديـــه الأشجار ، وعوين من بين اصابعه للماء التبجس والانفجار ، وانقلب جـــزل الحطب ببركته حساما عضبا ، وعاد ببصاقه في البئر ماؤها الملح الاجـاج فراتا عذبا ، واستسقى الغمام فاجاب ووكف ، واستحصى لما دام فانجاب وكف، صفوة الصفوة من برايا الخلاق ، المبعوث لتتميم مكارم الأخـــلاق (207) ، العاقب الحاشر (208) الماحي (209) ، الكريم المناقب والمآثر والمناحي . سيد ولد آدم (210) ، وافضل مرسل فيما تأخر من الزمان وتقادم ، سلالة عبد الله ابن عبد المطلب ابن هاشم ، محمد النور' ابو القاسم ، الذي اوجب الله مـــن تعزيزه وتوقيره ما اوجب (211) ، وكتب على عباده المؤمنين من فرض الصلاة عليه والسلام ما كتب ، وحَضّ على ذلك بما اخبر من صلاته هو وملائكتـــه عليه وندب (212) ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ماذرّ شارق وغرب ، وغرد

203) ونسنك 1 : 91 .

204) القرآن : طه ، 108 .

205) انظر كل المعجزات المذكورة في الرسالة في كتاب الشفا للقاضي عياض 1 : 280 وما بعدها

206) ونسنك 3 : 162 .

207) ونسنك 1 : 194 ، 2 : 75 .

208) ونسنك 1 : 470 .

209) ونسنك 6 : 176 .

210) ونسنك 7 : 313 .

211) القرآن : الفتح ، 9 .

212) القرآن : الاحزاب ، 33 .

الحمام فاطرب ، وسرى الى زيارته كلف" بها وسرب ، وجاء الشوق اليه بقلب وذهب ، صلاة وسلاما يدنيان للوله الصب من قربه ما عز وعزب ، ويضمنان للجاني المذنب امنه من هول الحشر اذا حزن وحزب ، ويحظيأن بشفاعته التي هي افضل ما سأل سائل وطلب .

من عبده المستنقذ من هوة الردى بنور هداه ، المعتصم بسنته التي وفقه الله لاتباعها وهداه ، الوافد بقلبه وحبه ، وان حال ممتد البعد بين شخصه وبين قربه ، على رفيع منتداه ، الراغب الى الله تعالى في زورة تنقع غلة اشتياقه اليها وتبل صداه ، المعترف بالعجز عن شكر ما اولاه ، من المنن الجسيمة واسداه ، المهدي له من صلوات الله الزكية ، وتحياته العبقة الذكية ، افضل واكمل ما بعثه محب شيق واهداه ، المبسوطة اليه في الشفاعة له عند ربه واستيهاب ما اسلف من ذنبه يداه ، المتوسل به الى من هو اكرم الخلق عليه ، واحظاهم وارضاهم لديه ، في انجاده على جهاد عداه ، فلان (213) .

كتب الى حضرته المقدسة الارجاء ، وروضته البهجة التي لا يريم التحليق عليها طير الرجاء ، ومثابته السنية المبتهل الى الله تعالى حتى يتيح الالمام بها في الامهال والارجاء ، سادن بقاعها التي طوى فؤاده من تعظيمها على ما طوى ، المعرس بحشاه اشد الحنين الى عرصاتها ، التي لا يأس من اقتضاء دين موافاتها ، الذي مطل به الدهر ولوى ، المشاهد لمكرم مشاهدها بعين الشوق على النوى ، الوارد عليها بقلبه وان أقام جسمه باقصى المغرب وثوى . عن نفس خامر لحمها ودمها يارسول الله فيك الحب ، وقلب اليك ياخير مبعوث الى العرب والعجم يلتاع ويصب ، وضلوع نار الأسى اثناءها للبعد عنك تشب . وكبد تنتهب افلاذها كلما يسري نسيم ذكرك الاعطر لها ويهب ، واجفان عفا رسم كراها دمعها الهامي قطره المنصب ، وحرص على الالمام بربوعك المطهرة يتفتى على مر الجديدين ويشب ، ومحافظة باقصى الاستطاعة على طاعتك التي قرنها بطاعته الرب (214) ، وتمسك بسنتك التي

---

213) ابو القاسم العزفي .

214) قرنت طاعة الرسول بطاعة الله في القران مرات كثيرة . انظر مثلا آل عمران 32

أدْأب على خدمتها وأكِبّ ، واستشفاعٍ بمكانك المكين الى رب العالمين ، في إدامة ألطافه التي تغب ، وموالاة النصر على عُداته وعُداتك من ذوي الكفر الذين بحر طغيانهم يزخر ويعُب ، وقليل في حقك يا امام المرسلين (215) ، وخاتم النبيئين (216) ، وقائد الغر المحجلين (217) ، دمع يفضح سواري المزن وغواديَه انهمالُه وانهمارُه . وغليلٌ لا يبرح القلب لفح واريه وأواره ، وبث لا يُخْلَع عن الجسم او يتاحَ المثول بمشاعرك المعظمة شعارُه ، ووجدٌ تبدو في صفحات الخدود المخدَّدة آثاره ، وصبر يتَّصل بحكم النزوع انفصال شمله وانتثاره ، لعتيق انقذته من النار وقد كان على شفاها ، واطلعت له من انوار هدايتك ما داوى بصيرته من العمى وشفاها ، واوليته من آلائك الفائتة حد اللسان وعد البنان ، ما احْسَبَ نفسهُ وكفاها ، وعرف نعمة الله عليه بك وانها لنعمة لا يبلغ الشكر اقلها فضلا عن اوفاها ، فعاقته العوائق التي يحول بين المرء ومناه اعتراضها ، والقواطع التي تقعد النفس كلما جد بها انتهاضُها ، عن ان يلِم بمشدك المقدس الثَّرى ، وربعك المطهر الساحة والذرى ، وفنائك الاكرم الذي فاز من سعد باحتلاله من الورى ، ليقضي بما يتجشمه فيك من مشقة ، ويطويه اليك من شقة بعد شُقة ، ويخوضه من مخضر بحر ترمي العبرين بالزبد غواربه ، ويقطعه من مغبر قفر لا يهتدي بعلَم ساريه ساربه ، بعضَ حقك الذي لا يقارنه حق بل لا يقاربه ، وواجبك الذي اقام في الاعناق ، اقامة الاطواق ، لازمُه ولازِبه . وكيف لا وانت الذي اخرجتنا من ظلمات الضلال الى نور الهدى ، وعدلت بنا الى طريق النجاة عن طريق الردى ، وبشفاعتك نرجو الحسنى ، ونؤمل أن نحل من جوار الله وجوارك بالمحل الأسنى . وما زالت يارسول الله بغيةُ عبدك الذي لايريهما تمنّيه ، وسؤله الذي يعاني من الصبابة بنيله والوجد ما يُعنّيه ، ومقترحُه الذي يفني الايام كلفه به ولا تفنيه ، رحلةٌ يخلو فيها وجه العزم المنتضي من قاطع يفلَ شباه ، ومانع يغمد مهما شِمْتها ظباه ، اطوى فيها بايدي الرواحل

---

215) ونسنك 1 : 91 .

216) القرآن : الاحزاب ، 40 .

217) ونسنك 1 : 428 .

اليعملات ، ممتد مراحل الفلوات ، الى ان انيخ الركاب ، واحط الاقتاب بفناء اول بيت للناس وضع (218) ، واولى مآبة بان يخب لقصدها كل مسلم ويوضع، لأفرِّغ من فرضه المكتوب ذمتي ، وأبلُغَ من تجلي هموم النفس بذلك اقصى همتي ، وليشملني من بركات زوار بيت الله الحرام ، ودعوات المبتهلين الى الله سبحانه في ليلة المشاهد الكرام ، وحرمات التوسل في ذلك الموطن العظيم ، بجاهك الكريم ، الى ذي الجلال والاكرام . ما يحط عني للاوزار اعباء ، ويجعل الجنة لحجي كما اخبرتَ صلى الله عليك وسلم جزاء . ثم اذا بلغتُ الوطر من ذلك ، وقضيت اللبانة مما هنالك ، عُجتُ صدور المَراحل لك وثنيت ، وابتدرت زيارتك التي لو ساعد القدر لما تأخرت عنها ولا ونيت ، فعفَّرت الخد في مقدس تربك ، ونقعت غلة القلب الصادي الى قربك ، ومتعت الطرف من تلك العرصات الشريفة ، والمعاهد السامية الفخر المنيفة ، في متنزل ملائكة الرحمـــان ، ومهبط القوي الأمين عليك بالوحي والفرقان ، ومنتدى رسالتك الناسخ دينها جميع الأديان ، ومساكنِ ازواجك المطهرات بنص القرآن ، ومعالم اصحابـك وانصارك مبتوئي الدار والايمان (219) ، وملتقى افواج الوفود المجيبة داعي الرضوان . لأخرج بذلك من قبيل من حج فجفا . وأودي بعض حقك ياخير من اختار الله من بريته واصطفى . ولما اعوز ذلك عبدك وعزه . وألجأ الاضطرار لا الاختيار الى المُقام ولزه ، بالعوائق التي ارجو ان يبين فيها لديك العذر ، ويوفي مني لارتفاعها يوم يتاح النَّذر ، انفذت هذه المخاطبة التي قلبـــي هاديها ، وشوقي حاديها ، ولو ساعفت الأوطارَ الاقدارُ . لسبقَها بي التسرع لك والبدار ، اشكو فيها اليك . صلى الله وسلم عليك . بثَ التأخر عن ذلــك الجُوار . والمغيبَ عن مشاهدة تلك الاثار . الساطعة الانـوار ، والحسرة على ما حُرِمتُ عن التمثل بقول القائل . وقد بدت اعلام طيبة فارتمينا عــن الرواحل . نزلنا عن الاكوار . واضرع اليك ياخير متشفع به ومتوسل . واكرم متبلَّغ بوجاهته لخير الدنيا والآخرة ومتوصل ، في ان تشفع لي عند مــن اصطفاك على العالمين واجتباك . وخصك بالكرامات التي لا مُداني لك فيها

---

218) القرآن : آل عمران ، 96 .

219) القرآن : الحشر ، 9 .

وحباك . في ان يهب لي من ذنبي ما قدمت واخرت . ويغفر لي مِن حُوبي مـا اعلنت واسررت . ويقيني من مُواقعةِ الفتن التي منها حَذَّرْت . ويوفقني الى اجتناب ما عنه نهيب وزجرت . وامتثالِ ما عليه حضضت وبه أمرت . وييسر لي في الدنيا من المثول بناديك الرفيعِ والتخييم . وفي الاخرة من التمتـع بجوارك في جنات النعيم . اجلَّ ما اعْلَقت به أملي وافضل نعمةِ التي تكاثرت قِبَلي ،ومواهبه الباعثة سروري وجذلي ، فانك الشافع المشفع(220)، والوجيه الذي لا يرد عن مطلب من توسل به ولا يدفع ، وان ذلك ليسيرٌ على فضـلك في حق عبد قلبه على حبك مقصور . وآماله اليك صور . وصلاته وسلامه عليك لا يلحقه فيهما ونى ولا قصور . وشوقه لك على تصبره عنك مؤيد منصور . وشكره لما اسديت من الايادي والآلاء الرائجة والغـوادي لا محـدودٌ ولا محصور ، وحقير في كرم مولاك الغني الذي لا ينفد ما لديه((221) ، والمنعم الباسط بالرحمة والمغفرة لديه . والجوادِ الذي لا يُخيِّب من اعتمد عليه . ولا يُسْلَم من سلّم الحول والقوة اليه .

اللهم يا اعز من عنَت اليه الوجوه . وأفضلَ من يؤمله الراغـب ويرجوه . واكرمَ مدعوٌ وعدُه الصدق . باجابة داعيه لا يُخْلف . وارحـمَ مرجوٌ بلطفه تكشف علل عبيده وتُصرف . يسر لي من حج بيتك العتيـق . وزيارة نبيك الهادي الى سواء الطريق . والالمام بمعالمه التي شوقتني اليهما كل التشويق . واوقدت في قلبي من الصبابة لها ما يربي على محتدم الحريق . ما يبهج قلبي ويسره ، ويطفأ بارتوائه من ماء مناه في ذلك اوراه وحـره ، ويعيدُ عمري الى اول ريعانه ويَكُرُّه . ويكحل ناظري من سنى تلك المعالم بما يقره . ويبرمُ لي سببَ شفاعته اليك ويمره . انك على كل شيء قديـر . وبالاجابة جدير . اللهم كما خلقتني على ملته مفطورا . ورسمت في كبدي من حبه الذي لا تبلى سريرته سطورا ، فالأمْ برفع استار البعد بيني وبينه صدوعا بفوائدي وفُطورا . وبلغه عني من سلامك الكريم الذي يعبَقُ نشره ويتضوع . وصلاتك التي تضم اشتات الرحمة والبركة وتجمع . افضل ما بلغتَ من صلاة

220) ونسنك 3 : 149

221) القرآن : النحل ، 96 .

المصلين عليه وسلامهم ناديه الارفع . ومربعَه الذي اضاء منه نورُ الهـدى
وسطع . ما همى المزن وهمع . واضاء برق ولمع . وغرّد طائر وسجع . وحن
شيّق الى قربه وتوجع . ثم تحيةُ الله الكريمةُ التي لا تفني ولا تنفد . تتكرر
عليه وتتردد . وعلى اهل بيته الكريم العناصر . وكافة اصحابه وانصـــاره
الماتين اليه باكرم الاواصر . ورحمته وبركاته .

الرسالة الخامسة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

الشرفاء بفاس

وكتبتُ عنها أيضا إلى الشرفاء المعظمين الذين بمدينة فاس

الأشياخ الجِلّة الأعزة الأسْنَوْن ، الذين بحبهم وحُب سلَفهم الكريم يكمل الايمان . وبتوفية حقوقهم المقرونة بحق الله تعالى وحق رسوله ، يُنال من خطوب الدنيا والآخرة الأمان . وبالاعتمال في مرضاتهم ينيل رضاه الرحمان ، آل رسول الله الشرفاء الذين بمدينة فاس أعْزِزْ بهم وأكْرِم من آل ، وابنـــاء سِبْطَيْه ورَيْحَانَتَيْه ، وقُرَّتَيْ عَيْنِه (222) المختوم بمحبتهم بأسعَد مبدإ ومآل ، وحائزو الفخر الذي كل واصفٍ وان أطال ما شاء وأطاب عـن بلوغ أدناه — فضلا عن أقصاه — آل ، حفظ الله تعالى شرفهم الذي قَصُر عنه كل شرف ، ونفع بحبّهم الذي ما له عن القلب ولا للقلب عنه مِن مُنصَرَف ، وانهض بحقوقهم التي كثُرت وكبُرت فغاية مُنى البَشر ان تقوم منها بطرف .

مُعَظِّم أقدارهم التي عليها وقف السنا والسناء ، ومُتَمّمُ واجباتهم التي هي أحق ما قصر على تتميمه الاعتناء ، المُثْنِي على خلال فضلهم التي بها يزكو ويطيب الثناء ، المُعِدُ ذُخْراً لأخْراه حبَّهم الذي ضاقت عمّـــا حملتْ منه الأحناء .

سلامٌ كريمٌ عَميم يعتمدكم ايها الأعلام الجِلّة ، والبدور المتألّقـة في افق البيت الطاهر لا الأهلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد حمْد الله الذي جعل حبّكم علامة السعادة ، والصلاة علـــى سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله الذي فضل الأنبياء بما مُنح على ولد آدم من مزيّة السيادة ، وعلى آله الكرام ، وصحبه الأعلام ، الذين كان لهم في إيوائه ، ونصره على اعدائه ، أكرم الابداء والاعادة .

والدعاء للمقام الكريم اليُوسفي القائم بنصر دين الاسلام ، الـذي دَرَجَ الملوك على الخذل له والاسلام ، بالنصر الذي يُقيدُ دين التوحيد مـن دين التثْليث اعز الاقادة ، والفتح الذي تُلقِي له معاقل الكفر ، إلقاء الصّغار والقهر ، بالمقادة .

---

(222) وهما الحسن والحسين ابناء علي ابن ابي طالب .

فكَتب كَتب الله لكم سعادة مُشرقةَ الأضواء ، مغدقةَ الأنواء ، من سبتة ــ حرسها الله ــ وآلاؤه سبحانه هامٍ مُزنُها هامل ، وصنائعُه الجميلة لدينه على أتمِّ ما يَقترح مُقترحٌ ويأمل آمل ، والحمد لله رب العالمين كثيراً .
وسبيل معظمكم الذي يحمد الله على ان فطره من مشايعتكم على ما فطـــره ، وسطر من محبتكم في حبة فؤاده ما سَطَره ، تعظيم لأقداركم السنيَّة التـــي لا يضاهيها جلالةَ قدْرٌ ، وتتميم لحقوقكم الأكيدة التي في تتميمها همةُ مَن شُرح منه للايمان صَدْر ، وإشادةٌ بمفاخركم التي لم يحز ما حازت من السَّنا والسناءِ شمسٌ ولا بدر ، وحبٌّ فيكم يرجو انه به لجماعة محبيكم إمـــــامٌ لصدورهم صدر ، ومَن حلَّ من البيت الكريم محلكم الأشرف الأسنى ، وحاز ما حُزتم بالانتماء لخير البشر من النسب الأقرب له الأدنى ، واتصف بمـــا اتصفتم فضلا وسيادة من الصفات الحسنى ، فحقٌّ على كلَّ مؤمن ان يحبَّكم حبّا يمتزج منه باللحم والدم ، ويتصرف في مشايعتكم باستحكام البصيـــرة ورسوخ القدم ، ويعكف على نشر مآثركم الباهرة التي لكم بها على الأكـفـاء فضل التقدم ، وان كان ما تميزتم به من المفاخر التي فقتم بها علاء ، ورقتم لألاءً ، وسبقتم اشتمالا على كل منقبة واستيلاء ، مما يفوق وصف الواصف ، ويفوت نثر الناثر ورصف الراصف ، وما يزال معظمكم بحسب هذه المقدمـة التي يرجو ان تثمر سعادة داريْه ، ويجدها نوراً يسعى بيمينه وبين يديه (223)، يهمه السؤال عن أحوالكم ويَعنيه ، فيرتاح لما يتعرف من صلاحها المُحتسِب، لتنميه ، ويصل الرغبة لله تعالى في مزيدكم من كل خير لكم يسنِّيه .

وكان انتهى له في هذه المدة التي مضت والأيام التي انقضت ، من شكاة كبيركم معشر تلكم العصابة الطاهرة ، وزعيمكم الذي عظُمت مزاياكم بما له فيكم من المزية الباهرة الظاهرة ، وبدر كمال بُدوركم المشرقـــــــة الزاهرة ، الشريف المعظمِ المكرمِ الأخصلِ ، الأكملِ الأوصلِ ، أبي الحسن ابن ابي زكرياء ، وصل الله تعالى إمتاع الشرف ببقائه ، وعرَّف كل مُبهِج من تلقائه ، وضاعف مزية ارتقائه ، ما تألَّم مُعظِّم جلالكم ــ علم الله ــ كل التألم ،

223) القرآن : التحريم ، 8 .

وحـق له ذلكم لانتهائه ، وأوهى جلَده وعَهدُه به الجلدُ الذي ضعفت مشتدة الخطوب عن إيهابه ، وألزمه القلق إشفاقا على ذاته السَّنيَّة واتقاء ، إذ كانت بقيَّة العلية منكم لا عدمت بقاء ، إلى ان ورد الآن شيعتكم المغـــرى بنشر آثار فضلكم المغرم المؤذّن ابو العباس بن ابي عبد الله كَتَـــب الله سلامته ، ووالى رعايته وكرامته ، فأهدى من البُشرى بصحة كماله أسناها ، وعرّف مِن تَمكُّن استقلاله بما بلّغ النّفس مُناها ، فارتاحت النفس لخبره الذي هو أطيب الأخبار ، وتلقيت بحقها من الشكر نعمة الله تعالى في وقايته التي هي من اجلّ النّعم الكِبار ، ووجبتْ على مُعظِّمكم تهنئتُه وتهنئـــة جميعكم هذه العارفة الراجحة كل عارفة عند المَقايسة بها والاعتبار ، ولله درُّ هذا المؤذن ودر ما اهداه ، فما كان ألذّ حديثه على الفؤاد وأنداه ، وواهاً له من مُوَفَّق ما أمَدَّ في التشيّع لسنائكم ، والتتبع لآثار ثنائكم ، مداه ، يُملي من محاسنكم كل مستغرب لا يمل ، ويتلو من سور مفاخركم أسنى ما لسماعه تعقد الحُبا فلا تحل ، ويقرّط الأسماع ، من تقريظكم الذي لا نزال نستلذُّ له السماع ، بحلى أعاد عليها ذلكم الفخر المتسعُ في شرفه للقول المحل ، ولقد سعد بحبِّكم في العاجلة ، وهو بلا شك اسعدُ به في الآجلة ، بآية ما منح من خِفةٍ ولطافة على القلوب ، وأُلقِي له من القَبول الذي هو لذوي العقول غاية المطلوب ، حتى لصار يتهادى تهادي الطرف الغريبة ، والتحف التي ليســت معهودةُ التُّحف بالقرينة لها بل بالقريبة ، شغفاً بما يعطر به المحافل من طيب ما يحكي عن نجيبٍ منكم فنُجيب ، ويعمر به الأندية من عجيب من الأخبـــار فعجيبٍ ، ومنه تتعرفون ما عومل به جزاء لحبكم الذي بالخير حباه ، من بر افرع رباه ، واعتناءٍ أعاد عليه عصرَ صباه ، ورعي هب له بكل محبـــوب نسيم صباه ، والله تعالى يديم حراسة سناكم الباهر وسنائكم ، ويوالي سعادة اوقاتكم وآنائكم ، ويَعْمُر بالمسار والخير الدار رحيب فنائكم ، والســلام الأتم يعتمد عصبتكم الطاهرة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

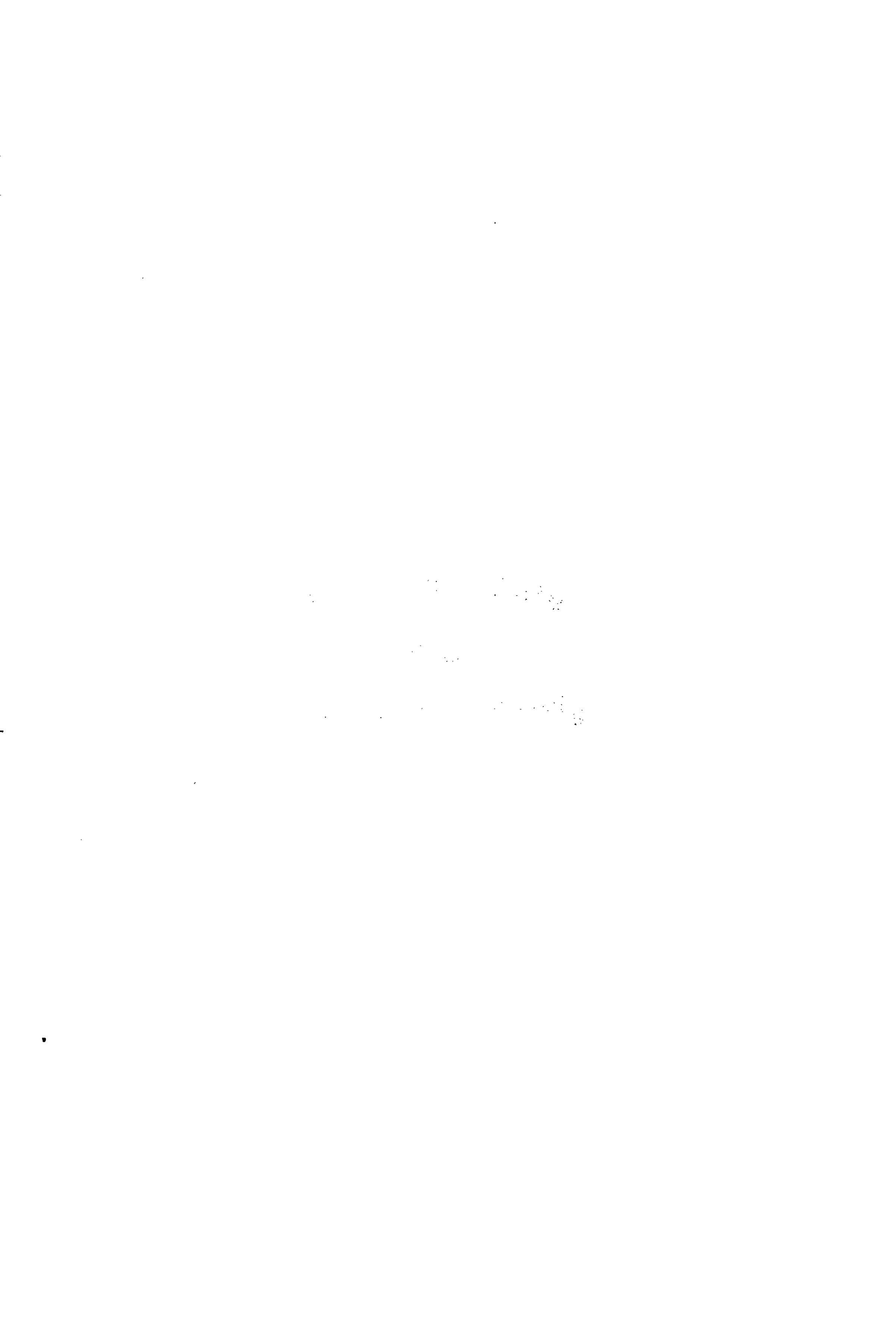


الرسالة السادسة :

من ابي القاسم العزفي

الــى

الشيخ ابي محمد الفشتالي



وكتبتُ عنها أيضا للشيخ الفقيه العالم العامل أبي محمد الفشتالي (224)

سيدي الشيخ الصالح العالم البقية الفاضلة أبو محمد ابن الشيخ المرحوم أبي عِمران الفشتالي ، ابقاه الله لاهل الدين والفضل علَما ، وعرّفه من نعمه أوفاها حظوظاً واوفرها قِسَما ، ولا أعْدَم اهل ولائه ، بصالح دعائه ، خيراً مكمّلا ولا نفعا مُتمَّماً .

موقّرُه ومعظّمه ، ومُكمل واجِبه ومتمِّمُه ، الداعي بامتداد بقائه ، المتبرك بصالح دعائه ، فلان (225) .

سلامٌ كريم ، مباركٌ عميم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد فكُتِب كَتَبَ الله لكم سعادة تُسمي مكانتكم في الديانة لأرفع الرتب وتُرقّيها ، وتحرسُ ذاتكم النفيسة وتقيها ، وتديم قبلكم عوارف النعم ، الوافية القِسَم ، وتُبقيها .

من سبتة ـ كلأها الله ـ وفضْل الله تعالى كما يَليق بجلاله مطّرد الاستمرار ، وبركات الدعوة الكريمة المؤمنية المرتضية متتابعة الانهمال والانهمار ، والحمد لله على منته الجمة وآلائه الغِزار . وشأن مُجِلكم ، العارف بمكانكم في الدين ومَحَلكم ، المتيقّن لصلاحكم الذي انتم فيه القدوة ، وبكم الأسوة ، وفضلكم المتفنن في اداء الواجبات على مثله لمثلكم ، إجلالٌ لقدركم لا يُخِلُ بالاعتمال فيه ، واكمالٌ لحقوقكم يستنفد جدُه فيه ويستوفيه ، ومثابرةٌ على حبكم الذي يرجو النفع في الداريْن بما يخلص فيه من النية ويصفيه . ودعاء الى الله سبحانه في حراسة كمالكم لا ينقطع تتابعه وتوافيه ، والله ينفع بذلكم ، بمنّه .

---

224) انظر ترجمته في المصادر التالية : ابن حجر : الدرر الكامنة 3 : 330 ، أبن القاضي : جذوة الاقتباس 62 ، الذخيرة السنية ص 71 ، 73 ، 80 ، 84 .

225) ابو القاسم العزفي .

وإلى هذا والى الله بقاءكم فان مجلكم بحسب ما يعتقده من واجباتكم التي لا يألوها تسبيقاً وتقديماً ، ويحرص عليه من التبرك بدعواتكم التي لا يبرح لتعهدكم بصالحها مستديما ، لا يزال يُنْفِذ من مخاطباته إليكم ، ما يقصد تأكيد حبه بانفاذه لكم وإيراده عليكم ، وتقرير ما لا انتقال عنه من تعظيمكم وتوقيركم لديكم ، ويتحرى اعلامكم من المتزيّدات بما يكون دليلا على الخلوص تحريه واعتماده ، وبرهانا على الصفاء الذي انفسحت فيه ميادينه وامتدت آماده ، وقد كان عرّفكم في هذه المدة السابقة ، في ما اورده عليكم من كتبه المتلاحقة ، بما تجدد من الأخبار ، وتزيّد من المتجددات الموجبة للاستبشار ، وما تزيد بعد ذلكم إلا كَوْنُ الوالي المعين لهذا الموضع على الوصول ، والله يعرّفُ من الاسعاد بذلكم ما يبلغ غاية السؤل ، وما يتعرف من قبله – إن شاء الله تعالى – من الأنباء ، فمعظمكم مبادر الى الاعلام به والانباء ، واتصل الآن ما سنّاه الله من الافراج عن ذلكم المكان والتنفيس ، وانجلاء التضييق الذي كان مَن هُنا لأجله متغيّري الخواطر مُتألّمي النفوس ، فسُرَّ بذلكم معظّمُكم وكافة الأولياء ، سرور من هو مساهم لذلكم العلاء ، في جميع الحالات ، ويتدين لكم ولمن هنالكم من الاخوان ، بحكم الايمان ، باصفاء المودة وإخلاص الموالاة ، وما يُشك في ان تلكم الغمّاء والشدة التي أهمّت الخاصة والدهماء ، إنما انجاب ملمُّها ، وانجلى مدلهمها ، وكُفي مُهمّها ، ببركة دعائكم الذي لمثله يؤذن في الوصول ، وتفتح ابواب القبول .

فلله تعالى الحمد الذي ليس عنه إقصار ، والشكر الذي يفيد من استقرار النِّعم ما فيه للعيون إقرار ، على العاقبة التي أنجز في تحسينها لمن هناكم من الصابرين وعده ، وتكييفِ اللطف الذي هو عنوان على ما يكون من الخير بعده ، وتعريفِ بركة الأَوْلِيّ ، لهذا الأمر العلي المرتضيّ ، الذي ما تبرح الأقدار تبدي يمنه وتظهر سعده ، ومعظّمُكم لصالح دعائكم – نفع الله تعالى به – مستمد ، ولمزيد قصدكم الجميل مستجد ، لا تعتمدونه من ذلكم بزيادة إلا تناهى في ذكرها ، وبالغ في شكرها ، وقدرها حق قدرها .

والله تعالى يبقيكم في ستر من الحياطة مديد ، ويعتمدكم من آلائه بما لا يدخل تحت حصر ولا تحديد ، ويديم مكانتكم في مزيد ، والسلام .

الرسالة السابعة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

الخليفة المرتضى الموحدي

وكتب عنها ايضاً جدد الله رحماه عليها :

السيد الأجل الأعز أبو إسحاق ابن سيدنا الأمير الطاهر المرحوم أبي إبراهيم ابن سيدنا الخليفتين الامامين اميري المؤمنين ، زاد الله مقامهم الأسمى ظهوراً وعلوا ، وأبقاه مؤملا في المهمات مرجوا ، ولا أعدم عوارف الصنع الجميل له اطراداً ولا نموا ، وعرف من اعتنائه بمصالح أوليائه ، ما لايزال الشكر له مردداً متلوا .

خديمهم المتمم من خدمتهم ما حق عليه اتمامه ، الملتزم من تعظيم مقامهم وإكباره ما يتعين حق الاخلاص له التزامه ، ومشيد بما أحرزوه من شيم الفضل الذي اتَّسق بهم نظامه ، المستنهض لصالح الدين والدنيا عنايتهم الميسرة كل أمل عزَّ مرامه ، فلان .

أما بعد حمد الله مظهر عنايته بهذه الدعوة المرتضية ومجليها ، ومسعد الأمة بما هداهم له من اتباعها وتوليها .

والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله الذي ايده بالمعجزات التي لا تبرح ألسنة الأيام تمليها ، والآيات التي تبلى جدَّة الدنيا ولا تبليها ، وعلى آله الكرام ، وصحبه الأعلام ، المتقدمين بين يديه في حومة كل حرب اشتجرت عواليها ، والمصممين في ثل عروش الشرك حتى عاد سافلها عاليها .

والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم الذي جاهد كل فئة ضالة حتى ابصر غاويها . واقصر غاليها ، واطلع من انوار الهدى ما عاود به جدَّته من رسوم السنَّة باليها .

والدعاء لحضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المرتضى ، امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الأمير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدينا الامامين اميري المؤمنين باطراد السعد الكفيل بذل مناويها ، وعز مواليها ، وإنجاد العضد المسنّي لها من جليلات الفتوح ما لم يتسن في سوالف العصور وخواليها .

فكُتب ، كَتَبَ الله لمقامكم الأسمى سعداً لا يزال الدهر عنه مبتسماً وقصدا للأجر في العناية بمصالح عباد الله وبلاده مغتنما ، وحمداً لا يبغي بطيبه بديلا من ظل لأرَجِه متنسما ، من سبتة ـ كلأها الله ـ وبركات الدعوة المرتضية التي عُمرت بها ارجاؤها ، وحق في الاعتلاق بها ظنُّ النفوس وصح وجاؤها ، سافرةٌ عن كل صنع يَقصُر دونه الأمل الطامحُ ، ويُسرُ بتوهمه، ويقرُ بتوسمه ، القلب المتخيلُ والطرفُ اللامح ، ويُشعِر بمُسامحة الأيام فيما لم تكن لولا يمن هذا الأمر العزيز من الأوطار تسامح . والحمد لله كثيراً ، وعما يحق على الخديم ، لذلكم المقام الكريم ، الذي افرده الله تعالى من خصائص الشرف بما افرده ، واوجده ذريعة لنيل الآمال المُعْوِزَة حين اوجده ، من صدق التشيع الذي تفيده الأيام ، ما توالى منها الدوام ، فيه استبصاراً ، والدؤوب على واجباته التي لا يسوم النفس عنها إقصارا ، والتكميل للوَازِمِهِ التي لا يألوها تسرعا لها وبدارا ، والاشادة بنشر مناقبه التي أرَّج أرجها الارجاء كما طبقتها انتشاراً ، والتأميل لعنايته في المهمات التي لا يَعْدَم النجح ما كان منها بها مدارا ، والله تعالى يعين على ذلكم بمنّه.

وإلى هذا وَالَى الله سعودكم ، وحرس وجودكم ، فقد تقدم خطاب معظمكم في هذه الايام ، بذكر ما هدى الله تعالى له من الاعتصام ، بالدخول في دعوة الحق ، والركون لحرم الامامة التي ارضت الخالق قياماً بمصالح الخلق، وتقرير ما كان في تكميل البيعة السعيدة من العمل المرجو بحسبه عموم الصلاح وشموله ، والتأسيس لمبانيها على الاخلاص الذي لا ينفع الله بعمل ما لم تكن هذه السبيل سبيله ، والاعتماد فيها على إقامة رسم الدين الذي لا يشوبه عرض ، ولا يتعلق بما اتجه فيه من الاغراض الدينية للدنيا غرض ، اذ كان ايمن الاعمال فاتحة وعاقبةً ، واحراها بان لا تزال السعادة له مصاحبة ، ما تمحَّضت فيه لارادة وجه الله تعالى الطويات ، ورفضت دونه الأطماع الدنويات ، لا سيما والحضرة الكريمة العلية المرتضية التي سُنّيَ للنفوس من الاعتلاق بحبلها ما ارتجته ، ورجت بكريم نظرها فتح باب الخير الذي كانت الاضاعة لمصالحها ارتجته ، قد نزهها الله عن المعاملة إلا بالحق الذي جدَّدت بعد الدُثور رسمه ، وابدت بعد ذهاب عينه واثره وسمه ، وأحْرِ لمن اتى ضارعا اليها في القبول عليه من هذا الباب ، واهتدى لاستمالتها للنظر اليه بهداية اولى الألباب ، ان يحظى بما امَّل من حنوها وإشفاقها تتفق له بيمن نظرها الصنائع التي اعوزه متمنّي اتفاقها ، ولما

وجب الآن من النظر في تعيين من يفد على الباب الكريم بالبيعة السعيدة ما وجب ، واجتمع لذلكم من عبيد الحضرة الكريمة من كان اولا الى عقدها انتدب ، وكانت العادة في مثل هذا الوجه ان تجريَ على ما الشهوات فيه متبوعة ، والأغراض مطاعة لا مطيعة ، رأوا انهم إن جروا في ذلكم على ما عهد ، ولم ينزعوا عن تلكم العوائد المحمود غيرُ ما منها تُعُودَ ، فقد شابوا وشانوا تلكم العقائد التي اخلصوها ، ونقضوا تلكم القواعد التي بنوها على الصدق ورسوها ، فثنوا أعنه النظر الى من يحق إيفاده لمشكور آثاره ، لا لمحاباته وإيثاره ، ولمراعاته ما يشمل الأمة من المصالح لا ما يخصه ، وكونه لا يرضى ان يكون إلا الله سبحانه لا لغرض ذميله في هذه الوجهة ونصه ، فاختاروا من صلحائهم وفضلائهم ، ومن وقع عليه إجماع ألبائهم وعقلائهم ، وعيَّنوهم لهذا المهم الذي لم يسغْ إنظاره ، والأكيد المبني عليه من كريم النظر لهم ما رجوا ألا يطول انتظاره ، وهم فلان وفلان ، وما منهم إلا من هو فردٌ في متانة دينه ، وفذٌ في صدق يقينه ، وعلمٌ مشارٌ في الخير إليه ، ومستنامٌ لما جمع الله من خلال الخير لديه ، يمَّن الله سفارتَهم ، وأمَّن سفرهم ، ويسر بمبتغى الخير المليء بانجلاء الضير ظفرهم ، وقد حمَّلوهم من المصالح التي لا ينفرد واحدٌ دون ثان بقليل منها ولا كثير ، والمنافع التي لا يختص خاص دون عامٍ منها بصغير ولا كبير ، ما عوّلوا عليهم في تفسيره ، واستناموا اليهم في بسط جليله ويسيره ، ورجوا ان ينبني لهم عليه من نظر الحضرة العلية الذي تأكد له الاضطرار ، وينثني نحوهم من كريم التفاتها الذي اشتد منهم له الافتقار ، ما يحقق في فضلها الجم آمالهم ، وينجح فيما راموه من صلاح أحوالهم اعتمالهم ، والرغبة لمقامكم الكريم الملية عنايته لآمال معظميه بالتتميم ، ان يمهد لهم عند الحضرة العلية ، ويقدم في حقهم من المقدمات السنية ، ما يحل عُقَد التهيُّب عن ألسنتهم تمهيده ، ويبسطهم حتى يستوفي جميعهم في القول ما يريده ، وان تبذلوا لهم من كريم الاعتناء ما يضمن تسني رغباتهم ، ويتكفل لهم ولمن وراءهم من عبيد الحضرة السنية بنجح طلباتهم .

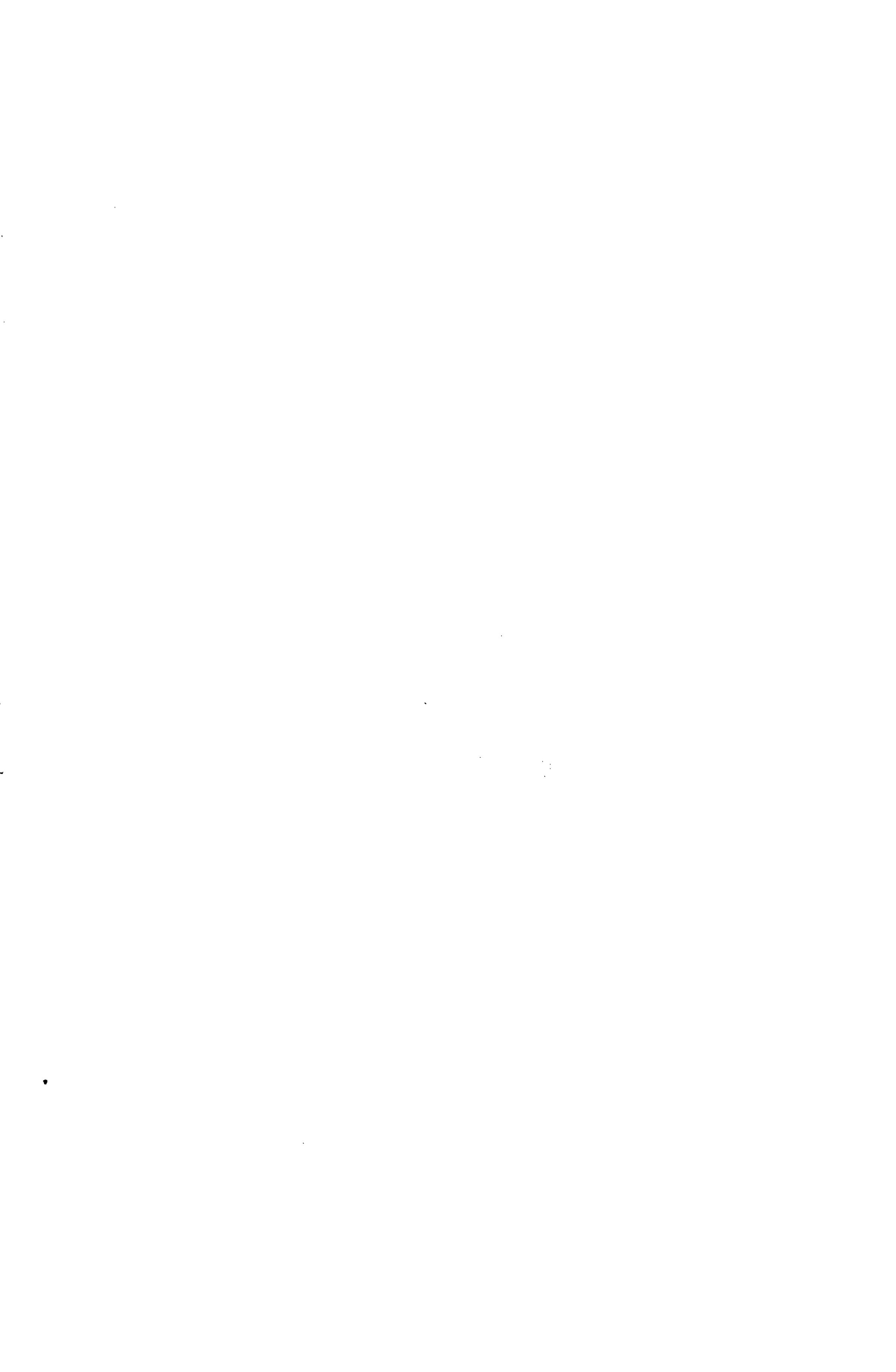
وجلالكم ان شاء الله محقق في المضمون ، عن فضله من ذلكم الظنون ، مسعف رغبات آمِليه بما يبهج النفوس ويُقِرُّ العيون ، والله تعالى يكافيء اعتناءكم ، ويعمُّ بمتَّصلات السعود آناءكم ويسعد ايامكم ، ويصعد مقامكم ، والسلام .

الرسالة الثامنة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

ابي اسحاق الموحدي



وكتبت عنها أيضاً جدّد الله رحماه عليها

الحضرةَ الكريمة العلية الامامية المباركة المؤمنية المرتضية الهادية المهدية السامية السَّنية السُّنية المعظمة المكرمة المرفّعة المُمَجَّدة المنصورة المؤيدة الشريفة المنيفة الطاهرة الظاهرة المرجوة المؤملة ذات الفضل الواسع والاحسان الجم ، والبركات الكفيلة لبدد الاسلام بالنظم ، ولشَعَث الأنام باللم ، والنظر الجميل الذي يفزع له فيفلُ غرب مزعج الفزع ويصرف صرف مُذهل الغم ، حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الامام المؤمن بالله تعالى المرتضي لأمره امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الأمير الطاهر ، ابي ابراهيم ، ابن سيديْنا الخليفتين الامامين اميريْ المؤمنين ، أبقاها الله موكلة بالدين الحنيفي الذي استرعيَتْه من كريم نظرها عيناً لا تهجَع مكملةً من مصالح البلاد والعباد ما القلوب لاتقاء نقصه تتوجع ، معلمة في حياطة أوليائها من حفي الالتفات لكل ما هو في دفع المحذورات عنهم والمخوفات انجى وانجع .

عبيدها المتمسكون من طاعتها بالعروة الوثقى المعتلقون ، ومماليكها المتصفون بالاخلاص في مشايعتها المتحققون ، وارقاؤها الراجون كريم نظرها لدفع ما يتوقعون من الحوادث ويتقون ، وخدماؤها المسارعون إلى امد آماد النصح في خدمتها المستبقون ، واولياؤها الموالون شكر آلائها التي هم بسوابغها مطوقون ، الأشياخُ والأعيانُ من اهل سبتة كلأها الله .

سلام الله الكريم ، وتحياته التي لا تبرح ولا تَريم ، يعتمد الحضرة السامية كثيراً ورحمته وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي من نِعمه الواجب حَمْدُه عليها حمدد ، المرجو لأن ينجز على يد هذه الدعوة المؤمنية المرتضية من كَرّة ظهور الملة المحمدية ما سبق به وعده .

والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله المأخوذ على جميع الأنبياء ميثاق الايمان به وعهده (226) ، ومصطفاه المخصوص في اليوم

---

226) اشارة الى الآية 2 من سورة آل عمران .

المشهود ، من فضيلة مقامه المحمود ، بمزيّة اختصاص لم يكن ليلقّاها إلا مجده ، وعلى آله وصحبه المتولين لاعلاء دينه الحق ، حتى ظهر على جميع أديان الخلق ، راغما أنفُ مَن كره متصاعِراً خده (227) ، الباذلين في مواطن الحرب الضروس ، دون مهجته الكريمة نفائس النفوس ، لكل سنان ذلِقٍ شباه وحسام طرير حده .

والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المقتفي في محو اثار الزيغ والضلالة ما نهجه من لاحِبِ طرق الهدى خاتم الرسالة سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم جدُّه ، الوافي بما قام به من قشْع غيابات الظلم المُتكاثف الاظلام ، وقمع عتاة عِداه الكائدين لملة الاسلام ، على حين استطارت شررُ شرِّهم وتأجج وقْدُه ، وعن خلفائه الراشدين الذين عناهم نصر أمره العلي وعضْده ، واستضاءوا في كل مشكل فاهتدوا بما اورى لهم من انوار الرُّشد زنْدُه ، وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم ابن سيدَيْنا الامامين اميري المؤمنين المصروفِ عن هذه الدار وقد تعاظم وجدُها به إلى الدار الآخرة وجْده ، الموصوف من صفات الفخر الذي تقْصُر عن مداه مُتبلِّجات الزُهْر ، ومتأرجات الزَّهر ، بما لا يستطاع حده .

والدعاء لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المؤمن بالله تعالى المرتضى ، أمير المؤمنين أبي حفص ابن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم ابن سيديْنا الامامين اميري المؤمنين ، بالنصر العزيز الذي يَثْلُّ ويَهُدُّ من عُروش الشِّرك ما ظُن انه لا يمكن ثَلُّه ولا هَدُّه ، والفتح المبين الذي يُرجِع ويرُدُّ من مواطيء التوحيد المغتصبة ومواطنه المقهورة المستغلبة ، ما يرى الكفر انه لا يتأتى رجْعه ولا رده .

فكتب العبيد كتب الله للحضرة الكريمة المؤمنية المرتضية عضداً لا تزال وطأته على اعدائها تشتد ، وسعداً لا تبرح به ظلال الأمَنَةِ على اوليائها تمتد ، وقصداً في تمهيد بلادها وتهدين أرجائها تنصرف باقبالها عليه

227) اشارة الى الآية 9 من سورة الصف .

وجوه الخُطوب عنها وترتد ، من سبتة كلأها الله وبركات' دعوتها العالية مرجوة لدفع كل محذور يخاف إلمامه ، وعظيم حنانها مؤمل للاقطاع من جسيـــــم إحسانها ما يصوب فيروي ظلال الآمال غمامه ، وسعودها المتزيدة التمادي ، كفيلة" بتأنيس كل قلب خامره لتوقـّع العوادي ، روعه واهتمامه ، والحمد لله كثيراً عن نفوس أُشـْربت من صدق الطاعة للدعوة المؤمنية المرتضية ما ليس عيله زيادة لاشراب . وطويت افئدتها من الخلوص في مشايعتها على ما لا تفي فِصاح الألسنة بافصاح عنه ولا إعراب ، واضربت ضمائرها عن غير الاقبال على مناصحتها التي بها كمال الايمان أعمّ إضراب ، ولهجت ألسنتها بشكـر ما لم تزل تزخرف به ثناءهم من التفاتات فريدة وعنايات غراب ، ونهجـــت جوارحها من سبل الخدمة ما يرجون به زيادة دنوٍ من رضاها واقتراب ، ذلكم بان امرها العزيز هو امر الله الذي اظهر مِن دلائل الاعتناء الرباني به مـــا اظهر ، وابدى من براهين الصنع الجميل له ما بهر الألباب وحقيق" ان يبهر ، وتوحـّدَه من صفات الفضل الذي لا يجارى ، وسمات العدل الذي لا يبـارى ، بما انتشر في الأقطار واشتهر ، واوجده غياثا ليدفع عن الملة الحنيفية مـن عوادي عُداتها المتهمـّمة بـطلبها المـُعنية كيْد من أسرّ لها بالمكايـــدة أو جـَهـَر ، ورحمةً لمن استنجد به من اوليائها على اعدائها واستظهر .

وبحسب هذه المقدمات التي صرحوا بها واشادوا ، وشادوا علـى اصدق الوفاء واوفى الصدق ما منها شادوا . لا يزالون معتمدين من تقريـــر احوالهم ، لدى الحضرة العلية التي هي مطمح آمالهم ، ما النـّصح على تقريره حادٍ ، مؤدين للمزيدات في كل الأوقات أداء استظهار عليها بعالي نظرهـــا واستنجاد ، مستمدين كرام آرائها ، وجسام آلائها ، في ما اهم واثقين بمـــا عندها من جميل إعانة وإمداد ، وفي عِلـمها الكريم ـ شرفه الله ـ انّ هـــذا القطر ـ وصل الله كلاءته وحمايته ، وعكس على من رامه ورماه من الأعـداء رومه ورمايته ، ـ اعلى ثغور الاسلام المتطرفة ، واقربها داراً من طغاة التثليث الساعية في كيد التوحيد المتصرفة ، واصقبها جوارا لشيعها الغادية منهـــا وان ادعت غير ذلكم بالأهواء المائلة لها المنصرفة ، فهو على انفـــــراد؛ واتحاده بصنوف من الأعداء مـُكْتنف ، ومـَكيد من جملة مطالبين مستغرق في

الارصاد له دهرهم ماضٍ وحالٌ ومؤتنف ، ومرميٌّ مرُوم من مشرك أو شرٌّ منه في الاجلاب عليه معه مشترك ، لا يثْنيه عن الممالأة عليه دين ولا أنف ، ولا يبالي ان يقرب من امره لعدو الله ما يراه بعيدا . ويستنهضه لمطالبته متى رآه عنها قعيدا ، ويُطلعه على خفايا اسراره مُبدياً ومعيدا ، فيهيج له بذلكم عزماً ما نام عن إيذاء الدين ولا سكن ، ويبعث منه جِدّاً جِدٍ طاغٍ ما اخْلد لغير الالتذاذ بشب نار الحرب ولا ركن ، ويريه ان قد امكنته من هذا الثغر طُعمة فضل الله العظيم ، وسعد امره الكريم ، كفيلان بأن لا تتجه له ولا تتمكن ، وما زال من ناطت الحضرة الكريمة ـ وصل الله تأييدها ، ووالى إسعاد آرائهـا وتوفيقها وتسديدها ـ من النَّظر فيه بخاصتّها الأخلص ، وخالِصتها الأخص عماد جميعنا معشر عبيده الواجب علينا شكر غنائه ، واداء الشهادة بما هي له متحققة من صدقه في موالاتها وخلوصه وصفائه ، الشيخ الأجل الأكمل ابي القاسم ابن الشيخ الفقيه العالم ابي العباس ابن القاضي الأعدل ابي عبد الله العزفي ، ـ وصل الله إعزازه وإسعاده ، وشكر ما ابداه في تمشية اغراضها الكرام فيه من مشكور الجدّ واعاده ـ فقلدت منه امانة الاسترعاء لأهله خير مقلد ، واختارت لتمشية سيرها الجميلة فيهم من غدا بهم أرْأف وعليهم احوط من والد على ولدٍ ، واستكفت امرهم من اوفى في الاكتفاء بما حمّل على كل ذي غناءٍ وجلد ، جاريةً على قانون الصلاح احواله ، دائرة على قطب النجاح اشغاله ، مستغرقاً في الاقبال على مباشرة مهماته جميع آنائه ، صارفاً لمطالعة الدقيق والجليل من اموره حَفيَّ اعتنائه ، مثمراً لمجابيه بأخذها من حلها ، ووضعها في محلها ، تثمير مَن يرى توفيرها بتحيُّفٍ ماله ، متوخياً في ذلكم كلّه من خدمة الأمر الكريم ما يتوخاه من طابقت كرماً ووفاء اقوالُه لأعماله ، عملا بمقتضى العلم والدين اللذين اقتفى في سلوك نهْجهما القويم ، اثرَ اعلام العلماء آبائه ، والورع الذي ابى له على ما زيد من بسطة التولية والتمكين إلا إباء كل قادح في فضله وزكائه ، والحرص من سكون عبيد الأمر الكريم على ما تعرض في إدامته لهم شاقّ السُهد من لذيذ إغفائه ، وكان مما عني بالنظر فيه فوافق الآمال نظره ، واحسب نفعا جميع الأولياء اثره . وانْسدّ به دون كل عدو الطريق المتقى منه ضرره ، الهُدْنة التي كانت الحضرة الكريمة قد اوعزت اليه بابرام عقدها ، والتزام عهدها ، فانه حاولها بالتدبير الذي اقتضاه دينه الذي مَتُنَ وعقله الذي رجح ، وتناولها بالجد الذي ساعده جد الأمر

العلي فنجح . الى ان تيسرت ببركة الدعوة الكريمة مطابقة للتمني ، وتسنت الرغبات في امن السُبل بها لمترددي التجار ، ومعتمدي الامتيار ، اكمـــل التسني ، وتفرغ لغزو عدو البحر الغربي فأبيد واستؤصل ، وبلغ السؤل في شمول العافية ، السابغة برودها الضافية ، وو'صل . وهي الآن قد قـــارب الانصرامَ امدُها الممدود ، وشارف التمامَ حدُها المحدود ، وداني الانفصام عهدها المعقود ، ولم يبق منها الا اربعة اشهر او نحوها من اليوم ، والنفوس والعيون حذراً لما بعدها نافرة الأنس طائرة النوم ، فان هذا الطاغيـــة القشتالي (228) وقَمَه' الله ـ لا قرار علـى زأره ، ولا امن مـن غائلتـه مـع إشـادتـه بالـعـزم علـى ... ... (229) ، ومــا زال في اثـنـاء هـذه المدة يعدد للمنازلة ويُعدُ ، ويستنهض ممالأة املاك ملته عليها ويستمـد ، وقد تواترت الأخبارُ ، وتوالى من مشفقي سكان الأندلس على هذا القطـر الاخبار ، بما عند البرْجَلوني (230) من إظهار في البر والبحر لأسبـاب المظافرة له والمظاهرة ، وبدارٍ لاعانته تأكيداً لحقوق الديانة وأذمـَّـة المصاهرة ، وبخروج قسيسي النصارى ورهبانهم ، مخترقين جميع اقطارهم وبلدانهم رافعين صليبهم المنهوب ـ إن شاء الله ـ المسلوب ، ومعبودهـم المقهور ـ بحول المعبود الحق ـ المغلوب ، محرضين بذلكم عُداة الله الكفرة على النفور لامداد طاغيتهم بل آمرين ، وبانثيال فرقهم ـ فرقها الله ـ مهطعين لدعاتهم مشمرين ، وذلكم مما لا يصده ، ويثني عزم الطاغية عنه ويـرده ، بفضل الله العظيم ، وبركة الأمر الكريم ، إلا تجديد الهدنة إن بودر لها قبـل انقضاء هذه ، وسورع لربطها قبل إسراع الطاغية للحصر وإغذاذه ، وقـد دوخل في ذلكم فأبدى الاجابة مقرونة بالاشتطاط ، منوطةً بالتعاطي الذي بعد اللتَيّا والتّي ما انحطَ عنه بعض الانحطاط ، ولا غرو ممن استحكمت مثله مطامعه ، وتوفر ممن يبذل نفسه وماله في طلب ما يريغه مطيعه وسامعـه ، وامتلأت من تحريض فُجّار الملَة الموهنين لها المُهينين مسامعه ، أن يشتطَ

228) خرم في الورقة اذهب بعض هذه الكلمة .

229) خرم بمقدار كلمة واحدة .

230) لعله والي برشلونة .

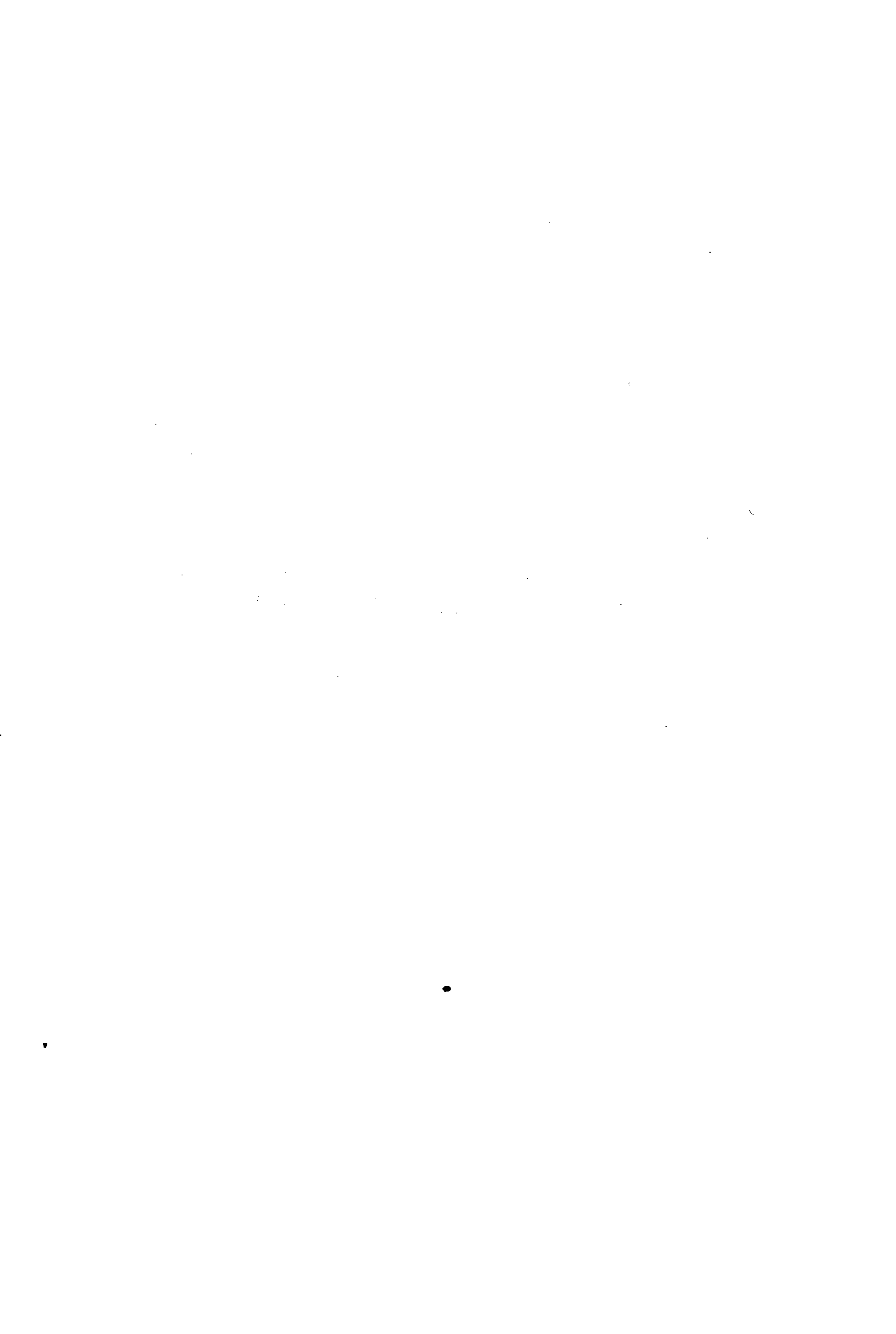
ويحتكم اذا خُطب ، ويزهد إلا على ما يُريد في الاجابة لما منه رُغب ، والذي وقف الآن امره عليه ، وانتهى بعد الجهد في الانحطاط إليه ، سبعون الف دينار في صلح عامين ، بزيادة ثلاثين الفاً على العاميْن المتقدميْن ، مقابلا بهذه الزيادة المكملة للسبعين الفاً المتممة ، اشخاص النصارى المدفوعين له في الهدنة المتقدمة .

ولولا ان هذا المكان الآن ، قد تقلصت مواد مجابيه ونضبت ، وانقطعت اسباب مرافقه بانقطاع اسفار النصارى له وانقبضتْ ، وتُوُقِّعَ بل تُحقِّق العجزُ عن هذه الزيادة التي طُلبت ، لكان الارتباط لها قد أُمضي ، والتحمل لمشاقها قد رضي ، ولما كانت الحضرة العلية ـ حرس الله وجودها ، وشكر جودها ، ووالى صعودها وسعودها ـ إليها المفزع في ما اهم ، وهي المرتجى من عميم طولها ، ما يذهب الروع ويفرج الغم ، وبكريم نظرها يستدفع ما يتوقى ويرفع ما ألمَ ، لما عني به من تتميم مصالح عبيده مقامها الأسمى ، ومحلُها الذي منه يرتجى الطَّول وتؤمل النُّعمى ، واهتمامها الذي بمثله يحفظ حَرَمُ الاسلام ويُحمى ، انهى اليها مماليكها المفتقرون لكريم امتنانها ، وعميم احسانها ، صفة احوالهم ، ومدُّوا اكُفَّ الضراعة ، عند عدم الاستطاعة ، واثقين بتحقيق رجائهم في فضلها الجمّ وآمالهم ، لتنعم عليهم من لازم هذا الصلح بما يوجدهم السبيل لتكميله ، وينجدهم على تحمُّل باهض عبئه وثقيله ، وينيل كُلاًّ من عبيده في انسدال ظله عليه غاية تأميله ، وقد تقدم من عداتها المنزهة كرامها عن لغو القول ومجازه بالاعانة لهم ما لم يفتقروا إلا وقتهم هذا لانجازه ، والعبيد يرتقبون الجواب الكريم بما يعتمدون عليه ، ويستندون في هذا الأمر المهم اليه ، ويأبى حنان المقام الكريم وحُنُوُّه إلا الاسعاف بما يكُفُّ عادية عدو الله الطامح به عتوه ، إذ لا مَعْدِل له عن المبادرة للمحاصرة ، والمعاجلة بالمنازلة ، إن لم يكن للصلح انعقاد ، وكِلاَ الأمرين ليس بسوى الحضرة العلية عليه استنجاد ، وغير خافٍ ان المحاصرة ـ إن كانت ـ والله تعالى دافع ما منها يُتوقع ، حادثٌ يعز وهيه رَوْمَ من يَرُمُّ وخرقٌ يُعْيي رقعَ مَن يُرْقع ، وان نائب الامداد عليها يُربي أقل جزء منه على جملة مال الصلح ان قرن اليها ، فهو اذا سُبِرا ، وكيفما اعتبرا ، أهون الأصعبين ، واخفُّ المتعبين ، واما مَجْبَى هذا المكان فقد صار حسبما

قُرِّرَ ومُهِّدَ ، لغايةٍ من الضعف قلما على مثلها عهد ، فما فيه على لوازم حماته ، من فرسانه وغزاته مزيد ، وما منهم الا ضروري ما من اعداده بُـدٌ ولا عن إرصاده محيد ، فلو لم يقيدهم به المال ، وكان قد سرَّحهم الاهمال ، لكان من يجاوره من هؤلاء البربر فضلا عمَّن عداهم من عُتاة عداه ، قــد نشبت فيه مخالبه وتمكنت منه يداه ، وما اعان على النهوض بعبء هذا الصلح وانجد ، إلا اعشار الزيت التي اوجد الله تعالى من مستفادها بالديوان مـا اوجد ، ولولا ذلكم لما كان به للمُنن استقلال ، ولَعَرَا بوقوع العجز حال الهدنة التي هي من اجل المنن اختلال ، وليس هذا العامُ عام غلَّة يستعان ويُستظهر ، بما يستفاد من اعشارها ويستثمر .

ونظر الأمر الكريم - ايده الله - فيه الخير اجمع ، وعنايته كفيلة من إحسانه بما امتد له الرجاء وتعلَّق به الطمع ، لا زال لمفزع العِلل مزيحـاً ، ومن مفظع الخلل مُريحاً ، والله تعالى يديم الحضرة العلية ويصل بقاءهـا ، ويوالي اسماء دعوتها السنية وارقاءها ، ويضاعف اظهارها واعلاءهـــا . ويشكر اعتناءها ، ويكافي آلاءها .

والسلام الكريم ، المبارك العميم ، يخصها مجدداً مردداً ، ورحمـــة الله تعالى وبركاته .



الرسالة التاسعة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

ابي عبد الله بن نصر امير غرناطة

وكتبت عنها أيضاً للأمير أبي عبد الله بن نصر صاحب الأندلس (231)

المقامُ المخصوصُ بأسنى صفات الفخر وافخر صفات السناء جلاله، المستولية على أمدٍ آماد السؤدد مناقبه المبتدأ المختوم بها كلُّ ذكر جميل خلاله ، المجيب في حياطة الاسلام بتلكم الجزيرة التي قلَّ بها انصاره انتهاضه واستقلاله ، مقام الأمير الأجل ، المجاهد الاكمل أبي عبد الله ابن الرئيس المقدس المرحوم أبي الحجاج بن نصر ، أدام الله تعالى له عوائد الاعزاز والاسعاد ، وتكفل لمدة بقائه الذي به بقاء الدين الحنيفي بتلكم الأقطار بالامتداد ، وشكر آثاره الكريمة في رعي مَن دانه بمحض التشيع واخلاص الاعتقاد .

معظم مقداره الذي تقاصرت الأخطار السَّنية عن سنائه ، المستغرق في توفية واجباته الأكيدة جميع آنائِه ، الواقف على ما منحه من حفيل اعتنائه، اجزل شكره واجمل ثنائه . الناطق في تقرير الاعتداد بعلائه ، عما وقر من خالص الولاء له بين احنائه ، فلان .

اما بعد حمد الله اللطيف الخبير ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ورسوله البشير النذير ، وعلى آله وصحبه الباذلين في نصرته مُهَجَهُم لِشبا السِّنان الذَّلِق وحدِّ الحسام الطرير .

والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي تجددت به معالم الديانة بعد التبديل لها والتغيير ، وعن خلفائه الراشدين اولي الجِدِّ في تقبُّل اثره والتشمير ، وعن سيدنا الأمير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدَيْنا الامامين اميريْ المؤمنين الطيب الخِيم والخير . والدعاء لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المؤمن بالله تعالى المرتضي لأمره امير المؤمنين ابي حفص ابن سيدنا الامير الطاهر ابي ابراهيم ابن سيدينا الامامين اميري المؤمنين ، بانجاد الأقضية واسعاد المقادير .

---

231) انظر ترجمته في اللمحة البدرية لابن الخطيب ص 30 – 37 .

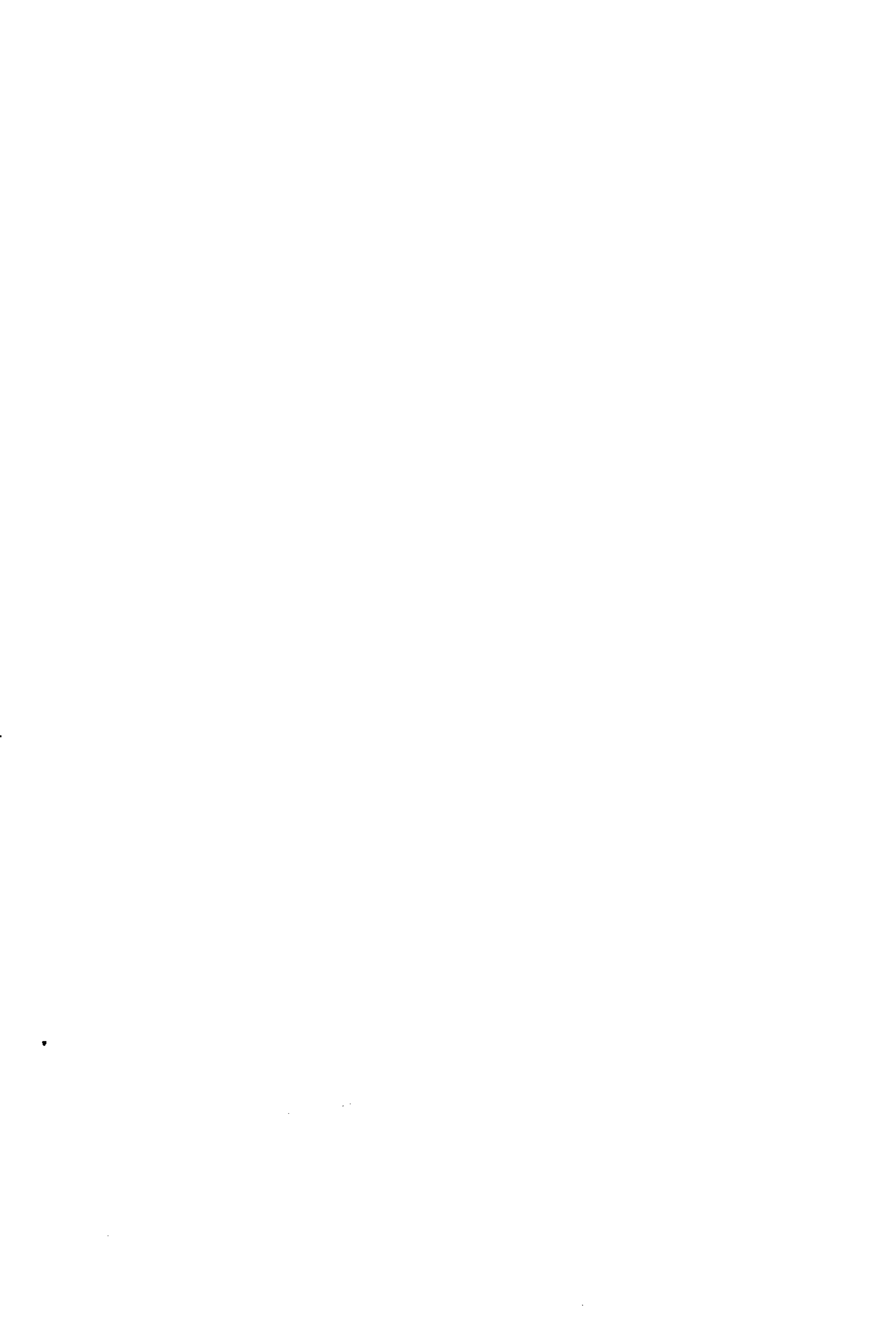
فكتب كتب الله لذلكم المقام احفل مكيّفات الصنع الجميل ، واجمل متعرفات اللّطف الخفي الحفيل . من سبتة ـ حرسها الله ـ ولا مُتَعرف بفضل الله سبحانه وبركة الأمر العلي المؤمني المرتضى ـ ايده الله ـ الا مالـــوف الخير ومعتاده ، ومكيّف الصنائع المُحسب بها تماماً سؤْل كلّ قلب ومراده ، والحمد لله كثيراً . وشأن معظم مقامكم الأسمى تعظيمٌ لجانبه يقتفي إثر الجد فيه ويتتبَّع ، وتتميمٌ لواجبه الذي يدين بالتزامه ويتسرع ، واشادة بما خصه الله به من خصائص الشرف التي تحتها يندرج الفخرُ اجمع ، ونشرٌ لمفاخره التي يحلي بذكرها نظمه ونثره الشاعر المفلق والخطيب المصقع ، وثناء علـــى فضلكم يردد من عطره ما يقصـّر عن طيبه المسك الأعبق الأضوع ، وتشيُّع لكمالكم تَـغْرى النفس بالاستبصار فيه وتُولَـع .

وبحسب هذه المقدمة التي تعيَّن الاستفتاحُ بها والتصدير ، والقاعدة التي وجب التّمهيد لها والتقدير ، والعقيدة التي لا تفي اليراعة ، ولا تكفـــي البراعة ، في الايضاح لما يجـِنُّ منها الضمير ، والنبذة التي تومىءُ لمـــا تحتها من صدق الموالاة التي لا يأتي الحدُّ على جميعها وتشير ، لا تـــزال النفس باستطلاع احوال كمالكم ، الذي به انتعاش الاسلام هنالكم ، معنية ، ولا تبرح مخاطباتها لكم لما تقتضيه من مبهجات اجوبتكم امنية ، لا تعدل بهـــا امنية ، ولا تنفكُّ سالكة في التعريف ، بمبهجات الأمور الغريبة التكييـــف ، سبل الوصلة التي تسنت واضحة جلية ، وقد كان التعريف لجلالكم سبق ، بما تأتّى بفضل الله تعالى واتفق ، من الصنع الذي ارغم انوف عدى الهُـــدى ، واخلف ظنونهم في شتات اوليائه بما اظهر من اتفاق اهوائهم وابدى ، وذلكم بعقد الصلح مع الشيخ المعظم ابي يحيى بن عبد الحق ـ اعزه الله ـ على هذا المكان ، وابرام عهده على الموالاة الناسخة ما تقدم من المقاطعة في سالفات هذه الأزمان ، حسبما تولت المخاطبة المفردة في سرد منصوصها ، واستيفاء مقصوصها ، والاعراب عن حقيقة مُشيدها ومرصوصها ، شرح ذلكم وتفسيره ، واوضحت كثير ما جرى فيه ويَسيره ، وكان معظم قدركم قد خاطب الشيـــخ المعظم ابا يحيى في توثيق ما امضى من ذلكم العهد ، وشدّ ما ابرم فيه مـــن العقد ، بالاشهاد بذلكم على نفسه السنية ، والاثبات على مكتوبه بخطّ يـــده

العلية ، فوصل الآن من إشهاده وخطّ يده ، ما وفّى بالغرض المطلوب وتجاوز المراد المرتاد في تأنيس النفوس وتطييب القلوب ، واصحبه تبرعاً منه خطابه المبارك مضمّناً من ضمان المعاضدة والمظاهرة ، وصلة اسباب الاعانـــــة والمظافرة ، والتمهيد لقواعد المخالطة والمصافاة ، والرفض لدواعي المنافرة والمنافاة ، والاعلان بالكون مع معظمكم يداً واحدة في الحفظ لذمار هذا الثغر والذب عن حماه ، واستنفاد الامكان في الدفاع عنه لمن رامه بكيدٍ او رماه ، ما صرح بأنه لم يرتهن فيه إلا عن خالص الصفاء ، وعزيمة الصدق والوفاء ، وأنه فيما يستقبل من الزمان ، ويتعاقب بعد من الأحيان ، لايزال ...... (232) الرائقة الوسام ، وواعد الظهور حزب الاسلام ، وهو سبحانه يصل لجلالكم علو المقام ، ويتكفل لسعده بالنماء والدوام ، ويبقيه شجيّ في صدور عبـــــدة الأصنام ، ويحرس بحراسة وجوده بهجة الايام ، بمنّه والسلام .

---

232) نقص في الرسالة بمقدار ورقة على الاقل

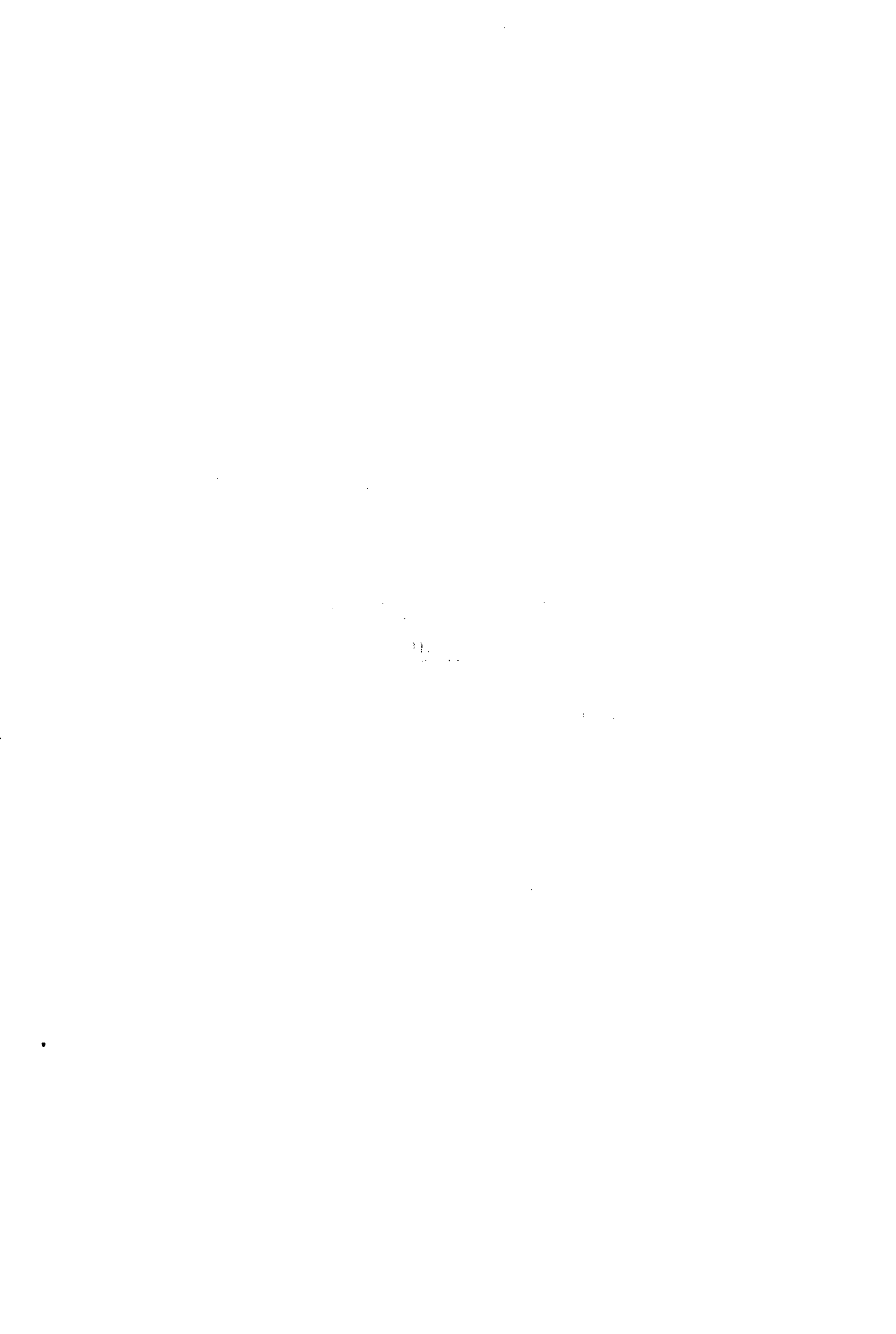


الرسالة العاشرة :

من ابي القاسم العزفي

الـــى

ابي عبد الله بن نصر امير غرناطة



وعنها ايضا — رحمها الله — اليه .

المقامُ الكريمُ الشريفُ المباركُ النصريّ الذي لا يتناول زُهرَ مفاخره ، وغرَّ مآثره ، الحصرُ ولا الحد ، المتميز من كرم الشيم ، وشيم الكرم ، بما تستثمر منه الفضائل اجمَع وتستمد الذي له في الفخر بالمحاماة عن دين الاسلام ، ماضيَيْ الرأي والحسام الأمد . مقام الأمير الأجل ابي عبد الله ابن الرئيس الأجل المرحوم أبي الحجاج بن نصر ، وصل الله تعالى له سمو المحل وعلو المقدار ، واجرى باسعاد آماله ، وانجاد كماله ، جواري الاقدار ، وشكر ما له في حياطة الاسلام الغريب بتلكم الجزيرة المستولي عليها عبدةُ الصليب من كريم الايراد والاصدار .

معظم محله الذي رفعه الله تعالى واعلاه ، المتمم لواجباته المقصور عليها متابع الجد ومولاه ، المشيد بما خصه سبحانه به من صفات السؤدد الأثيل وحلاه ، المتشيع لباهر جلاله المستظهر بكرم علاه ، المحتفل في شكر ما يبديه من كل قصد يروقُ جمالا مجتلاه ، فلان .

اما بعد ، فكتب كتب الله لجلالكم عضدا ينفسح مداه ، وسعداً يميت بغيظكم عداه ، وقصداً في رعي الاولياء لا يتخطى جميله جميلُ الثناء ولا يتعداه . من سبتة — حرسها الله — وليس الا نعم" لله يتوالى اتصالها ، وألطاف تجددها بُكر الأيام وآصالها ، مكيفاتها كفيلة بالقطع بالكفرة الممضاة المنتضاة على هذا الثغر عزائمها ونصالها .

والحمد لله على آلائه ، حمدا يؤمن بالاهتداء لأدائه ، فراق لطائفه وانفصالها ، وحقوق ذلكم المقام العلي وانها للحقوق الكثر ، ومناقبه التي لا يحيط بها من الشعر والخطب النظمُ ولا النثر ، والاستظهار بعنايته التي تطابق كرم ما يبدي وما يؤدي من خُبرها وخَبرها النقل والأثر ، على اتمَّ ما يوجبه الخُلُوص لعلائه والصفاء ، والمعرفة بأنه المجدد رسوم المجد بعد ان اودى بها العفاء ، والثقة بفضله الذي ارتفع اللبس عن باهره وبرح الخفاء ، من تتميم لا يحذر عليه الكف عنه والاقصار ، وثناء تحسُد على مُطاله ومُطابه

الأسماع الأبصار . ومثابرةٍ يتأكد فيها كلّ حين الاستبصار ، والله تعالى، يحمل في ذلكم على سبل الوفاء وطرائقه ، ويحمي من التغير مشارع حقائقه ، بمنّه .

والى هذا والى الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، فان كتابكم المكرم ، وافى معظمكم منه ابهج مواف ، فتعرف ما اشتمل عليه من برٍّ وافرٍ وافٍ ، وثناء جميلٍ رداؤه سابغٌ ضافٍ ، ومقاصد شاهدات بكرم ذلكم الجلال الذي لا فضل الا وهو به ذو اتصافٍ ، ولا كمال الا لجلاله . كما لا جمال الا لخلاله ، اجماعاً بلا خلافٍ ، فتَسَاهمَ القُرة والمسرة بما تبدّى وتأدّى من مجلوٍّ إيساة التودد الكريم ، ومتلوٍّ آيات السؤدد الصميم ، البصر والفؤاد ، وازداد الأنس تمكّنا ، والجذل تمتناً ، بما اعتمدتم تمهيده ، وتوخيتم توكيده ، من خُلوص الطوية وكرم النية ، القائمة على صدق ما لديكم منها الدلائل الثابتة والأشهاد ، ولا غَرو ان يصدر مثل تلكم الأغراض الرائقة الحسن والجمال ، والمقاصد الفائقة المعدومة النظير والمثال ، عن ذلكم المقام الذي خصّه الله بشرف الخلال ، وارى بايجاده حقيقة معنى الجلال ، وحباه من شيم الطول ، المستميلة له حبّ القلوب ما يقصر عنه مطال القول ، وان معظّمكم لمتلقٍّ طولكم فيما اسديتم من الذكر الجميل ، واهديتم من البر الحفيل والشكر الجزيل ، وابديتم من المذاهب التي هي على كرم المعتقد من ادل الدليل ، بما يحق له من الشكر الذي للأقلام فيه ما لها من السبح الطويل ، والثناء المستغرق لآناء الرواح والغدو والبكرة والاصيل ، معترفاً مع ذلكم بأنه جُهْد مُبلٍ عذره في القيام ببعض الواجب لذلكم السؤدد الأصيل ، إذ لا قدرة على الكِفاء ، ولا انتهاض بالوفاء ، لما اولاه من الأيادي الفائتة جُملا ومُجْملا مدى الشرّح والتفصيل، والله تعالى يبقي ذلكم الجلال كعبة فضلٍ تهوي الهمم اليها ، وتقبل وجوه الحمد عليها ، وتنال اماني النفوس المعجبة المحسبة لديها ، بمنه .

وتطول مقامكم الكريم — وصل الله علاءه ، واجزل لديه آلاءه — باهداء المتشوف اليه ، والمحروص عليه ، من اخبار القشتالي واخويه ، أباد الله جميعهم ، ودمر جموعهم ، واخبار اوريولة (233) ولورقة (234) تدارك الله

Orihuela (233

Lorca (134

اهلهما من عوائد لطفه ، وعوارف عطفه ، بما ينعش مشفيهم ويؤمن مروعهم ، وما للشكر معدل عن اعتنائكم بذلكم ، ولا للثناء محيد" عن احسانكم بـــــه وإجمالكم ، وذكرتم اجمل الله ذكركم واعلى قدركم ، وصول ابن صدوق (235) وصاحب بحر اشبيلية لعنهما الله وجبرها اليكم وايصالهما كتاب القشتالـــي – احانه الله بالتاكيد – في منع الزرع عن هذه الجهة عليكم وابنتم ما قرره من السبب الموجب لذلكم لديكم ، ومثل ذلكم لا ينكر على مثله ، من عدوٌ في الدين يرصد الغوائل لأهله ، لا سيما وقد اقترن به من اللعين ابن صَدوق من لا يألو في اغرائه وحثه ، وضمانه المعونة المنشطة من سحْته . بما يكون فيـــه ان شاء الله كالمستجير حتفه ببحثه ، وان كان في ضمن هذا كما قلتم ما لا يخفى، فلا مبالاة به لضمان الخالق سبحانه – وهو الملي الوفي – من ارزاق مـــن خَلَق ما لا بد ان يستوفى ، وكل من هنا متوكل" عليه ، واثق" بما لديه ، راجٍ ما عوده من صنعه الاحفل الاحفى ، وما زالت ألطافه الحفية الملية ، بازاحة الشدائد الوفية ، تدفع بها المحذورات وتُكفى ، فعاداته سبحانه في ذلكـــم مأمول" اطِّرادها ، مرجوٌ من استصحابها وانسحابها ، ما يتعذر معه مــرام الكفرة ومرادها ، ويحيق بها سيء المكر (236) المتصل فيه اصدارهـــــا وايرادها . وتعريف جلالكم بهذا اجمعــه ، مُتلقى من الثناء بأتمه عرفاً واضوعه مستدعى منه موالاة الاعلام ، بما تُجِـدُه من مثله متجددات الأيام ، ففـــي معرفة الامور على اختلافها ، واستطلاعها على تنوع اصنافها ، راحة للخواطر تستفاد ، ومنبه" على اعداد ما يجب له الاعداد ، وان كان لا اعتـــداد الا بالله المنجد من توكل عليه ، الكفيل بكفاية وحماية من سلم الحول والقوة اليــه ، والله تعالى ينور بصائرنا في الثقة بما لديه .

وهو سبحانه يصل إسماء مقامكم ، ويجزل مكافأة اعتنائكم بتأكيــد المخالصة واهتمامكم ، ويتكفل باسعاد ايامكم ، والسلام .

---

235) لعله احد المدجنين .

236) القرآن : فاطر ، 43 .



الرسالة الحادية عشر :

من ابي القاسم العزفي

الــى

كبير شرفاء فاس أبي الحسن الجوطي



وعنها أيضا للشريف ابي الحسن الجوطي معزياً في ابنه .

الشيخ الأجل الشريف ، ابو الحسن ابن الشيخ الأجل الشريف. المعظم ابي زكرياء الحسني الجوطي ، حرس الله تعالى كماله الأبهر وحمى شرفه ، ودفع عن ذاته التي هي ذات الفضل والكرم كلَّ مكروه وصرفه ، وجعله ممن تلقى بالرضا والتسليم حكمه الذي اجراه على عبيده بما شاء وصرَّفه ، وقابل هجوم الأرزاء بجميل الصبر المحظي من جزيل الجزاء ، بما ليس غير عارفٍ به فيعرفه .

معظم شرفه الذي بهرتْ الشهب سناء وسناً علاه ، العارفُ بما اشتملت عليه من شيم الفضل المبين ، الجامع لآداب الدنيا والدين ، حلاه ، المتولي بعد الله تعالى ورسوله بيته الذي هو احقُّ ما المؤمن تولاه ، الآخذ بأوفى حظوظ المساهمة لمجده الذي اصيب من كارثة بما نغص بل بغض لأوليائه مستعذب العيش ومستحلاه ، فلان .

اما بعد حمد الله الذي حتَّم الفناء على عباده فلم يحاش منه شريفاً ولا خص به مشروفا ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم ، ورسوله الرؤوف الرحيم ، الذي لو صرف صرف الحِمام عن ذي قدر لِعِظَم قدره في الأنام ، لكان عنه وحده - صلى الله عليه وسلم - مصروفاً ، وعلى آله الكرام ، وصحبه الأعلام ، الذين من جهِل فضلهم فما انكر منكراً ولا عرف معروفا ، والدعاء للمقام الكريم اليوسفي من عزيز النصر الذي ينقص من اطرافها ارض الكفر ، بما يغادر فؤاد كل كافرٍ مفؤوداً وطرفه مطروفاً .

فكُتِبَ كَتَبَ الله لعلائكم حمايةً تحرم على كوارث الحوادث جنابكم ، وعنايةً توفيكم اجزل الثواب على التَّلقي بجميل الاحتساب ، جليل الرزء الذي نابكم . من سبتة - حرسها الله - والبركات الأميرية اليوسفية - ضاعفها الله - يغدو منها ويروح ، ما تحيى به النفس وينتعش الروح ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، ولمجدكم الحق الذي يعترف من كبيره بما يعرف ، والفضل الذي آثاره المأثورة عنكم ، مع ان عظام الآثار غير مستغربة منكم ، من اعجب ما به الأسماع تطرف ، فالحب لأصيل مجدكم وصميمه ، منطوىً من

خالصه وكريمه ، على ما به اهوال الدنيا والآخرة ـ ان شاء الله تعالى ـ تصرف ، والاعظام المسلوك في اقامة فروضه لجانبكم وسننه ، على منهج التشيع الكريم وسننه ، لا يخرج عنه بحال ولا ينحرف ، والمساهمة لكم في الحلْو والمرّ المساهمة التي يرضاها كمالُكم الذي قر عيناً به الشرف ، وعزيزٌ على معظمكم ان يكون يوم من ايامكم يمر ، خليًا مما يستطاب من المكيفات معموراً بما يمر ، لكنها الدنيا ولستم ممن هو بتلونها جاهل ، وعن تقلبها ذاهل ، قلما استمر لأحد من بنيها فرح ، الا تلاه ترح ، او تسوغ منها هبة ، فلم تغدُ له منتهبة ، او راقته بأمنية ، فما راعته بمنية .

وقد كان اتصل على اثر انفصالكم من هذا المكان الذي تشرف بوصولكم اليه ، وظفر معظّمكم من لقياكم فيه بأجل الآمال لديه ، من نفوذ قضاء الله الذي ليس له دافع ، وقدره الذي اذا اتى فما منه شيءٌ نافع ، بوفاة ابنكم الذي كان افُق العليا ، يباهي منه افق السماء ، بأبهى وابهر من بدره الرائق السنا الفائق السناء ، أبي الفضل الذي اصبتم منه بأسرى الأبناء ـ قدس الله ثراه ، واجزل من رضوانه قراه ، واقر عينه بلقيا جده فياعُظم مسرته بذلكم وياجلالة بشراه ـ خبرٌ فُزع فيه الى الكذب بالآمال ، ورجيَ ان يكون ارجافا اثاره ما انصرف عليه من الاعتلال ، حتى وصل الناس الأثبات ، وعرّفوا من صحة ذلك المسموع الفاجع بما عزّ النفس لصدمته الثبات ، فأجرى الدموع همّلا ، صدقه الذي لم يدع املا ، وشب نار الضلوع ، فأغرب شمس الأنس فمن لها بالطلوع ، فانا لله وانا اليه راجعون ، تسليما لما قضى ، ورضاً بما ارتضى ، وتأدّباً بما ابقى لنا جدكم صلى الله عليه وسلم من هديه الذي يأثره مَن غبر عمن مضى ، وعند الله تعالى نحتسب ذلكم الفقيد الحميد ذا الشهادتين ، الحائز عنهما سعادتين ، فرع سؤدد في جرثومة الشرف الصميم بسق ، وقمر تمام في افق سماء الرسالة اتسق ، وفذّ جلال يعْيى القلم بحصر ما حاز للكرم من خلال ولو نسق منها ما نسق ، وزين شباب لم يمتّع بشبابه ، ولا استقر حتى تقرّ بنيل المُنى به وفيه عيون احبابه ، اسخن فقْده عين المجد الذي كان وجوده قرة ، والزم الأسى فما تفارقه نفوساً لم

تعرف حياته اسى ولا جهلت مسرة ، وبتَّ واوهن اسباب كل صبر لم تــزل موصولةً ممرة ، لو قبل عن علقه الانفس الفداء ، او نجع الدواء ، فيما نزل به وهيهات اعيى المداوين ذلكم الداء ، لهانت بذلا في ذلكم اخاير الذخائــر التي بها يُضنُ ، ولكان معظمكم سبقاً لكل سابق الى ذلكم عند ما يقــدَّر في اخلص الخلصاء لبيتكم الكريم ويظنُ ، وان كان علاؤكم اصيب منه بريحانة النفس التي لا تُداني نفسيتها الرياحين ، وفلذة الكبد التي لولا الآجـــال المحدودة لكان حين كل وليٍّ لكم اسى لها يحين ، وقرة العين التــي يمنع حزنها ان يبلى ذكره الذي يجدده بعد الحينِ الحينُ ، ففي بقائكم الخلــف ، ممن استبد به التلف ، وعلى قدر عظم الرزء في الأرزاء ، يكون حظ المرزوءِ من الأجر والجزاء ، ولستم ممن يخفى عليه سنن السنة فيهدى اليه ويرشد ، ولا ممن يجهل آدابها فتحشر له وتحشد ، فعنكم اهل البيت يأثُرها الآثــر ، وبارشادكم يستقيم الحائر ويستقيل العاثر ، وجدكم سيد الأولين والآخريـن اعظم مَن اصيب عموما به البشر ، وخصوصا انتم ايها النفر ، الذين انتم آله والمعشر ، وقد حض كل مسلم على التعزية في مصابه بمصابه ، ورأى ذلكم من امتثله تخفيفا لأعباء اوصابه ، وانتم احقِ من اخذ بما حض عليه واوصــى به ، واذا تأمل ذو اللبُّ ، وشُوج اعراقه الى عرق الثرى ، واعمل خاطره في من اباد الموت بينه وبين آدم من الورى ، وتلا قول الله تعالى « كل من عليهـا فان (237) وما كان قوله سبحانه « حديثا يفترى » (238) ، علم ان الحمــام سيعدمه كمن قبله اعدم ، ويلحقه وان اخره الى حين بمن تقدم ، فشغله ذلكم بنفسه عن من عداها ، وصرفه الى التأهب لحلول رداها ، وان كان معظمكم اورد عليكم قصداً لتسلية نفسكم النفيسة ما اورد ، وسرد من الأعراض المعزية ما سرد ، فلنفسه ـ علِم الله ـ عن التَسلي شرودٌ ، ومشرع الأنس لِمُمرُ حادثكم ما لها فيه ورود ، ومع هذا فالخاطر متشوف لما استقرت عليه حالكم من حسن العزاء الذي انتم احق من اعلق به يديه وحاشاكم ان يكون لكم عـن سننه صدود ، والناظر الى ما يتأدى من خبر تجلدكــم الــذي يســوء (239) الشامتين ولا شامتَ بكم الا عدوٌ عادى الدين ، ممدود .

---

237) القرآن : الرحمان ، 26 .

238) القرآن : يوسف ، 111 .

239) اشارة الى قول الشاعر :

وتجلــدي للشامتيــن اريهــــم ... أني لريب الدهر لا أتضعضـــــع

ربط الله تعالى على قلبكم بالصبر الجميل ، وانالكم ثواب الاحتساب مكمل التتميم متمم التكميل ، وتكفل لكم من سلامة النفس وسعادة اليوم المربية على سعادة الأمس بما يربي على التأميل ، وهو سبحانه يحرس مجادتكــم ، ويديم سعادتكم ، ويصل ودادتكم ، والسلام .

فهرس